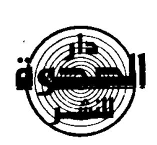
إحراق طارق بن زياد للسفن

أسطورة ... لا تاريخ !!

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م



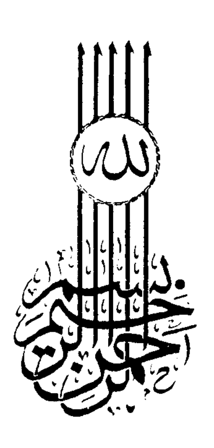
دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

الإدارة : ١٦ ش عدلى ص.ب ١٣٤٧ رمز بريدى ١١٥١١
ت ٣٩٣١٤٣٤ فاكس : ٣٩١٢٢٠٩
الفرع : حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

إحراق طارق بن زياد للسفن

أسطورة ... لا تاريخ !!

الدكتور / عبد الحليم عويس



قضية إحراق طارق للسفن

فى المصادر التاريخية

لم تحظ قضـية من قضايا التـاريخ الإسلامى الأندلسى بـاهتمام المؤرخين واخـتلافهم ، وجنـوح بعضهم - فـى ثقة واطمئـنان - إلى الرأى المثبت ، وجـنوج آخرين - فى ثقة مماثلة - إلـى الرأى المنفى ، مثلما حظيـت قضية إحراق طارق بن زياد للسفن ، التـى عبر عليها جنوده إبان فتحـه أسبانيا (رجب - رمضان ٩٢ هـ / يونـيو - يولية ٧١١م) .

فبعض المؤرخين الذين ينتمون إلى أزمنـة مختلفة وأماكن مختلفة يتجاهلون قصة إحراق طارق للسفن ، ويتحدثون عن الفتح دون أدنى إشارة إليها - على ما سنفصلـه فيما بعد - وكأنها شىء لا أصل له ، وبعضهـم فى المقابل يتناولـون قصة (إحراق طارق للسفـن) وكأنها حقيـقة ثابتـة لا تحتاج إلى الـوقوف عندهـا ولا إلى ذكر أدلة عـلى وقوعهـا ، وبالتالى فهـم يعرضونها بـطريقة تقـريرية ، ويعتبـرونها مفخرة من مفاخر الفتوحات الإسلامـية ، وعملا بطوليا شجاعا يدل على روح الفـداء والاستشهاد التى عـرف بها المسلمـون والعرب فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى !

ولقد ذاع الرأى (المثـبت) لقصة إحراق السفـن ، وشق طريقه فى الفكر التاريـخى ، وكأنه حقيقة مسلم بهـا ، مع أنه لم يظهر إلا بعـد مرور أربعة قـرون ونصف القـرن من تاريـخ الفتح الإسـلامى

لأسبانيا ، إذ لم يشر إلى قصة إحراق السفن هذه أحد من المؤرخين القدماء ، سواء من المدرسة التاريخية المصرية التى أرخت للأندلس خلال القرن الثالث الهجرى وهى مدرسة ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى ، صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » [1] ـ وعبد الملك بن حبيب ، الذى عاش فى مصر ، وإن كان أندلسى الأصل ، وصاحب كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب [2] ـ أم من المدرسة التاريخية الأندلسية التى ظهرت فى القرن الرابع ، وهى مدرسة أبى بكر محمد القرطبى المعروف بابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) ، وصاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ـ وسوف نورد ما ذكره فى قصة الفتح بشىء من التفصيل ـ ومعاصره (المجهول) فى القرن الرابع صاحب كتاب «أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها » [3] ـ وسوف نورد ما ذكره كذلك لكونه مرجعا أساسيا فى تلك الفترة ـ ولم ترد عند آل الرازى ـ أحمد بن محمد وعيسى ابنه ـ وابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ) صاحب « تاريخ علماء الأندلس » والخشنى صاحب كتاب « قضاة قرطبة » .

فكل مؤرخى القرن الرابع هؤلاء لم يظهر أثر للقصة فى كتاباتهم!!

وحتى مع ظهور المدرسة التاريخية المغربية والأندلسية المتألقة فى

(١) نشره المستشرق تشارلز تورى ، وأخيرا حققه فى مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .
(٢) توفى ابن حبيب سنة ٢٣٨ هـ .
(٣) نشره عدد من المستشرقين ، ثم حققه إبراهيم الإبيارى .

القرن الخامس الهجرى ، تلك التى قدمت لنا عدداً كبيراً من أعلام المؤرخين الأندلسيين من أمثال شيخ مؤرخى الأندلس أبى مروان بن حيان القرطبى صاحب « المقتبس » [١] و« المتين » [٢] ، وابن حزم الأندلسى صاحب « نقط العروس » و« طوق الحمامة » و « جمهرة أنساب العرب » و « كتاب الفصل » وعدد كبير من الرسائل ، وكلها مطبوعة موجودة ، والحميدى صاحب « جذوة المقتبس » ، وصاعد صاحب « طبقات الأمم » ، والطرطوشى صاحب « سراج الملوك »، والرقيق القيروانى صاحب « تاريخ إفريقية والمغرب » ، وغيرهم .

حتى مع ظهور هذه المدرسة المغربية والأندلسية المتميزة والمستوعبة، فإنه لم يظهر فى تراثها أثر لقصة إحراق السفن التى نسبت إلى طارق بن زياد فى فتحه للأندلس .

ومن الجدير بالذكر أن مصادر القرن السادس للهجرة ـ المعاصرة للإدريسى وابن الكردبوس القائلين بقصة الإحراق ـ لم تورد هذه القصة أيضا ، فلم تظهر القصة عند ابن بسام الشنترينى صاحب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، ولا عند ابن بشكوال صاحب « الفهرست » .

كما أن القصة لم تظهر عند لاحقيهم من مؤرخى القرن السابع، فليس لها أثر فى موسوعة ابن عذارى المراكشى «البيان المغرب فى

---

(١) حقق قطعا منه الدكتور محمود على مكى والدكتور عبد الرحمن الحجى .

(٢) توجد نصوص كثيرة منه فى الذخيرة ، وقد جمعها الدكتور عبد الله جمال الدين فى أطروحته للدكتوراة بمدريد .

أخبار الأندلس والمغرب » ، و « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » لعبد الـواحد المراكشى ، و« الذيل والتـكملة » لمحمد بن عـبد الملك المراكشى ، و« الـتكملة والحلـة السيراء » لابن الأبار ، ومـحمد بن على الشباط المصرى التوزى صاحب « صلة السمط وسمة المرط » .

وهى لم تظهر كـذلك عند مؤرخى القرن الثامـن الهجرى وعلى رأسهم علامـة المغرب عبد الرحـمن بن خلدون ، ولســان الدين بن الخطيب [1] .

فهل يمكن أن يتجاهل جميع هــؤلاء المؤرخين المغاربة الأندلسيين ـ خلال هذه القرون ـ قصة هذا شأنها فى تاريخهم ؟؟

---

(١) لم نذكر ـ خشية الإطالة ـ النصوص التى أوردها هؤلاء فى تراثهم عن فتح الأندلس ، فضلا عن أن هـذا لا يقتضيه المنهـج العلمى ، علمـا بأننا رجعنا إلى كـل هذه المصادر نلتمس فيها ما يدل على قصة الإحراق أو يقترب من الدلالة عليها فلم نجد لذلك أثرا .

انظرعـلى سبيـل المثال ماكـتبه هؤلاء عـن فتح الأندلـس فى : جذوة المقـتبس: للحميدى: ص٣٢ ، ٣٣ نشـر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبـنانى الطبعة ٢/ ١٩٨٣ ، وتاريخ إفريقية والمغرب : للرقيق القيروانى تحقيق المنجى الكعبى نشر رفيق السقطى تونس ١٩٦٨ صفحات ٧٤ وما بعدهـا ، وانظر صلة السمط : لابن الشباط : ص١٣٧ وما بعـدها بتحـقيق أحمـد مختار الـعبادى مدريـد ١٩٧١ ، وفتح المسـلمين للأندلس لمؤلف مجهول بتحقيق حسين مؤنس مجلة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٤، والعبر : لابـن خلدون ـ ٤/ ١١٧ وما بعدها ، الطـبعة الرابعة المصـورة ، دار الكتب العلمـية ١٩٧٩ . وحتى المصادر المشـرقية رجعنا إلـيها فلم نجد أثرا .وتـاريخ الرسل والملوك للطبرى ٨/ ٨٢ وما بعدها طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر نشر دار الفكر بيـروت ، والكامـل : لابن الأثيـر : ٥٦٢/٤ وما بـعدها ، طـبع دار صادر بـيروت ١٩٦٥، وأخبار الزمان للمسعودى : ص٩٦ ، نشر مكتبة الأندلس ، بيروت .

فتح طارق للأندلس فى أقدم المصادر الأندلسية :

ذكرنا أننا سنقف وقفة متأنية عند مصدرين أساسيين فى تاريخ افتتاح الأندلس ، وهما تاريخ ابن القوطية ، وتاريخ أخبار مجموعة، فهما من أهم المصادر وأوثقها وأحراها بإيراد القصة لو كان لها أصل فى التاريخ .

ولقد تتبعنا الكتاب الأول منهما ، فلم نجد أى أثر لقصة حرق السفن فى كتاب ابن القوطية ، مع أن كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس» من أقدم المصادر وأهمها فى تاريخ الفتح الأندلسى . وما ذكره ابن القوطية حول (الفتح الإسلامى للأندلس) يتلخص فى النصوص التالية :

قال ابن القوطية :

فلما دخل طارق بن زياد الأندلس ، أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة ، وقد ترعرعوا وركبوا الخيل ، يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ، وحشدوا الثغر ، وقدموا ونزلوا شقندة وما يطمئنون إلى لذريق بدخول قرطبة ، فخرج إليهم ثم نهض للقاء طارق ، فلما تقابلت الفئتان أجمع « المند » وأخواه على الغدر بلذريق ، وأرسلوا فى ليلتهم تلك إلى طارق يعلمونه أن لذريق إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ويسألونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح ، وأن يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس وكانت ثلاثة آلاف ضيعة سميت بذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا انحازوا بمن معهم إلى طارق

فكانوا سبب الفتح [1] . وكان دخول طارق الأندلس فى رمضان سنة اثنتين وتسعين [2] .

فلما جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكورة الجزيرة فأمر أصحابه بتقطيع من قتلوه من الأسراء ، وطبخ لحومهم بالقدور وعهد بإطلاق من بقى من الأسراء ، وأخبر المنطلقون بذلك كل من لقوه فملأ الله قلوبهم رعبا [3] .

ثم تقدم فلقى لذريق (. . .) ثم تقدم إلى استجة وإلى قرطبة ، ثم إلى طليطلة ، ثم إلى الفج المعروف بفج طارق الذى منه دخل جليقية ، فخرج من جليقية حتى انتهى إلى استرقة [4] .

وهكذا لم يرد أى ذكر ـ ولا أدنى إشارة ـ حول قصة إحراق السفن لدى ابن القوطية الذى يعتبر مصدراً من المصادر الأساسية فى فتح الأندلس ، وإن كان هذا النصر يفيدنا شيئاً قريباً من قصة الإحراق فهو يدلنا على أسلوب طارق الحربى ، إذ أنه كان يؤمن بأسلوب التمويه وحرب الأعصاب .

أما صاحب « أخبار مجموعة » ـ الذى يعتبر أيضاً من أوثق المصادر فى تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، والمنسوب إلى القرن

---

(١) ص ٢٩ ، ٣٠ بتحقيق إبراهيم الإبيارى، نشر دار الكتب الإسلامية، بيروت والقاهرة.

(٢) المصدر السابق : ص٣٣.

(٣) السابق : ص٣٥ وهو إبهام مقصود يمكن أن يكون حرق السفن من نوعه وهو ما سنحلله ونقف عنده فى ختام البحث .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية : ٣٥ .

الرابع الهجرى ـ فهو من هؤلاء الذين لم يوردوا أى ذكر لحادثة إحراق السفن هذه ، على الرغم من أن « أخبار مجموعة » من أقدم الكتب ـ بعد جيل ابن عبد الحكم وابن حبيب ـ فى التأريخ لفتح الأندلس . . . وقصة الفتح عند صاحب أخبار مجموعة [1] ترد على النحو التالى :

فبعث رجلا من مواليه ـ أى موسى بن نصير ـ يقال له : طريف، ويكنى بأبى زرعة ، فى أربعمائة ، ومعهم مائة فرس ، فسار فى أربعة مراكب ، حتى نزل بمراكبه جزيرة ، يقال لها : جزيرة الأندلس ، التى هى معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، ويقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لنزوله فيها .

فلما رأى ذلك تسرعوا إلى الدخول ، فدعا موسى مولى له ، كان على مقدماته ، يقال له : طارق بن زياد ، فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالى ، ليس فيهم عرب إلا قليل ، فدخل فى تلك الأربع السفن ، لا صناعة لهم غيرها ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين.

فاختلف السفن بالرجال والخيل ، وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع ، فنزله ، والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه.

---

(١) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم) تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١.

وكان موسى مذ وجه طارقا أخذ فى عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس ، عند طارق اثنا عشر ألفا ، وقد أصابوا سبيا كثيرا ورقيقا، ومعهم « يليان » فى جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتحسس لهم الأخبار ، فأقبل إليهم لذريق ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها ، فالتقى لذريق وطارق ، وهو بالجزيرة ، بموضع يقال له البحيرة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت الميمنة والميسرة ، انهزم بهم « شبشرت وأبة » ابنا غيطشة ، ثم قابل القلب شيئا من قتال ، ثم انهزم لذريق ، وأذرع فيهم المسلمون بالقتل ، وغاب لذريق فلم يدر أين وقع [1] .

وهكذا ينتهى نص أخبار مجموعة دون أن نستفيد شيئا يتصل بقصة الإحراق ، إلا أننا نستفيد من انهزام الميمنة والميسرة بقيادة ابنى غيطشة بعداً آخر يؤكد أسلوب طارق الحربى فى استعمال العقل والحيلة وحرب الأعصاب ما وجد إلى ذلك سبيلا .

إن هذين المصدرين ـ تاريخ ابن القوطية وأخبار مجموعة ـ هما أقدم المصادر الأندلسية التى بين أيدينا ، وهما يتميزان على المصادر السابقة والتى نعرف منها : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لابن عبد الحكم ، و« مبتدأ خلق الدنيا » لابن حبيب ـ بأنهما مصدران ينتميان إلى المدرسة الأندلسية ، بل هما الاستهلال للكتابة التاريخية الأندلسية ، بينما كان ابن عبد الحكم وابن حبيب ينتميان إلى المدرسة

---

(١) ص ١٦ ـ ١٨ .

المصرية التى سبقت فى كتابة تاريخ الأندلس .

وبالإضافة إلى هذا فإن هذين المصدرين موضع ثقة من المؤرخين على الرغم مما عرف عن ابن القوطية من نزعة شعوبية تميل إلى الأندلسيين . . . بينما يصف الدكتور العبادى ابن الكردبوس ـ محقق الجزء الأندلسى من الاكتفاء لابن الكردبوس ـ بأنه (لم يذكر للأسف المصادر التى استقى منها معلوماته والتى اعتمد عليها فى كتابه)[1].

ويصفه ـ أيضا ـ بأنه مولع بالغرائب والعجائب التى لا تحتمل التصديق [2] ، وليس متكلفا أن نقول : إن نزعة الغرائب والعجائب هذه كانت ـ بالطبع ـ موجودة بدرجة ما فى معاصر ابن الكردبوس وشريكه فى إيران رواية إحراق السفن (الإدريسى) ـ على الأقل ـ اعتماداً على وجود هذا الجانب فى الأدب الجغرافى وأدب الرحلات بصفة عامة !!

ظهور رواية إحراق السفن :

ليس من المعقول ـ كما يقول الدكتور محمود مكى [3] ـ أن يخفى هذا الخبر الهام على كل المؤرخين السابقين ، فلا يعرفه إلا الإدريسى أبو عبد الله محمد ، الذى توفى سنة ٥٦٠ هـ ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » سنة ٥٤٨ هـ ، ومعاصره أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس الذى لم تعرف سنة وفاته ، على خلاف فى أيهما سبق

---

(١) تاريخ الأندلس : لابن كردبوس : ص١١ ، طبع معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ ، مقدمة العبادى .

(٢) المصدر السابق (مقدمة العبادى) : ص ٢٥ .

(٣) مرجع سابق .

الآخر وأخذ عنه [1] ، وهو خلاف لا طائل وراءه فهما متعاصران ، وإن كنا نميــل إلى سبق الإدريسى ، لأنــه أكثر تفصيــلا ، وعنه أخذ الحميرى محمد بن عبد الله صاحب « الروض المعطار »، وهو الثالث الذى تبعهما فى ترديد هذه الرواية ، كما أن من المرجح أن يكون ابن الكردبوس قد توفــى فى نهاية القرن السادس الهــجرى ، ويكون ثمة احتمال بسبق الإدريسى عنه فى الزمان حتى وإن تعاصرا [2] .

يقول الإدريسى : (لـمـا جاز طارق بمن معه من البــرابر وتحصنوا بهذا الجبل ، أحــس فى نفسه أن العرب لا تثــق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التى جاز عــليها فتبرأ بذلك عما اتهم به) [3] وعن الإدريسى ـ كما سنــرى ـ أخذ الحميرى . . . فأورد فى « الروض المعطار » قوله :

(وإنما سمى بجبل طارق لأن طارق بن عــبد الله لما جاز بالبربر الذين معه تحــصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا يــنزلونه فأراد أن ينفى عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التى جاز فيها فتبرأ بذلك مما اتهم به) [4] .

---

(1) يذهب الدكتور محمود مكى إلى سبق الإدريــسى ، ويذهب الدكتور أحمد العبادى إلى سبــق ابن الكــردبوس . راجع المقــالة الســابقة لـمكى ، وفى تاريــخ المغرب والأنــدلس للعبادى: ص٦٣ وما بعدها .

(2) مقدمة تحقيق أحمد العبادى لنص ابن الكردبوس ، مدريد ١٩٧١ ، ص٧ .

(3) نزهة المشتاق : ٢/ ١٧٧ ليدن ، بتحقيق دوزى .

(4) الروض المعطار : ص٧٥ (جزء مستل منه) .

والتـشابه بين الـنصين واضح لا يـحتاج إلى تـعليق ، أمـا ابن الكردبوس فقد جاءت عـبارته مقتضبة فى كتابه « الاكـتفاء فى أخبار الخلفاء » وذلك عندما عقب على المعركة التى خاضها المسلمون بقيادة طارق فـى فتح الأنـدلس : (معركـة شذونه أو وادى لـكة أو وادى البيرباط) بقوله :

(ثـم رحل طـارق إلى قـرطبـة بعـد أن أحرق المـراكب وقـال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) [1] .

وتعتبر هذه النصوص الثلاثة التى وردت عند الشريف الإدريسى والحميـرى ـ الناقل عن الإدريـسى ـ وابن الكردبـوس ، هى الأصل الذى اعتمدت علـيه كل المصادر التاريخية والأدبـية التى أشارت إلى قصة الإحراق .

ولا أثر للقصة ـ كما يثبت رصدنا هذا الذى حاولنا أن يصل إلى درجة الحصر ـ فى بقية المصادر الأندلـسية الأصلية ، سواء تلك التى سبقت هذه المصادر أو التى عاصرتها فى القرن السادس أو التى لحقتها حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ـ كما ذكرنا سابقا .

---

(١) تاريـخ الأندلس : لابـن الكردبوس : ص٤٦ ، ٤٧ ، ووصـفه لابن الـشباط نـصان جديدان، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى .

إحراق السفن .. والأسطورة:

ربط بعض المفكرين بين قصة إحراق طارق بن زياد للسفن وبين عدد من الأساطير القريبة من القصة والتى شاعت هى الأخرى فى التاريخ ونالت حظا كبيرا من الاهتمام ومن إضفاء العناصر الخيالية والأسطورية عليها .

وقد عقد الدكتور محمود على مكى [1] مقارنة ضافية بين عدد من الأساطير تدور كلها حول إحراق القادة منهم لسفنهم ووضعهم جيوشهم أمام مأزق (النصر أو الموت) وذلك خلال بحث يحمل العنوان نفسه « أسطورة إحراق السفن فى التاريخ » [2] .

وهكذا ـ ابتداء ـ جعل الدكتور مكى من قصة إحراق طارق للسفن واحدة من الأساطير التى شاعت فى التاريخ ، وعالجها فى سياق عدد من الأساطير الشرقية والغربية ـ التى عرفت حول هذا الأمر .

ولقد ساق الدكتور مكى من الأساطير الشرقية أسطورة إحراق القائد وهرز الفارسى لمراكبه حين ساعد سيف بن ذى يزن فى تحرير اليمن والانتصار على الأحباش . وما سبق ذلك من إلقاء وهرز خطبة عصماء فى جنوده على النحو الذى سيذكره بعض المؤرخين فيما بعد فى فتح الأندلس . . .

(١) أحد المهتمين القلائل بالأدب الأندلسى والتاريخ الأندلسى ، ومحقق لقطع من المقتبس لابن حيان ، ووكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقا ، وصاحب مؤلفات عدة.
(٢) انظر الكتاب التذكارى لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الكويت ١٩٧٦/ ١٩٧٧ .

ويرى الدكتور مكى أن أسطورة حرق وهرز لمراكبه ، وأسطورة الخطبة المرتبطة بالإحراق ، يعتبران نواة لهذه الأسطورة التى تعرض علينا مثلا من أمثلة الفداء والتضحية سيصبح منذ ذلك الوقت خبرا محبباً لدى رواة قصص الحملات البحرية حيث يكون عدد الفاتحين أقل بكثير من عدد الجنود الذين يقومون بالدفاع عن الأرض المفتوحة[1] .

وانتقالا من أرض اليمن ، إلى أرض الأندلس ، وعبورا بالحقائق التاريخية المسلم بها فى فتح الأندلس حتى انتهى أمر معركة الفتح - معركة شذونة - بهزيمة ساحقة للقوط ونصر عظيم للمسلمين فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ ، مع وجود فارق شاسع بين الجيشين المتحاربين - جيش القوط الذى تقدره بعض الروايات بمائة ألف وجيش المسلمين الذى يزيد قليلا عن اثنى عشر ألف جندى - ومع وجود فارق فى العدة والعتاد لصالح القوط ، ومع أن القوط كانوا دولة منظمة تدور الحرب على أرضها ووراءها رصيد بشرى ومادى هائل، بينما كان المسنمون خليطا من العرب ومن البربر حديثى العهد بالإسلام وليس وراءهم - كما قال طارق - إلا البحر . . . !!

انتقالا إلى هذا الفتح العظيم الذى لا يرقى إليه شك يعلق الدكتور مكى بقوله :

(وكان من الطبيعى أن يلهب هذا النصر الهائل الذى أحرزه

(١) الدراسة السابقة الكتاب التذكارى لجامعة الكويت ١٩٧٦ م.

طارق أخيلة المسـلمين بعد ذلك ، فإذا بهم يضيفـون إلى رواية الفتح تفاصيل من صـنع الخيال حول أسبابه وأحداثه وشخـصياته ، وظلت هذه التفـاصيل تتضخـم جيلا بعد جيـل حتى أصبح فتـح الأندلس محاطـا بحلقات ودوائـر من الأساطير جـعلت تميـيز خيوط الحقـيقة التاريخية فيه من بين النسيج القصصى أمرا من الصعوبة بمكان) [١].

ثم يضيف رابطا بين أسطـورة وهرز فى اليمن وأسطورة إحراق طارق للسفن بقـوله : (ولعلنا قد لاحظنا التشـابه الواضح بين خبر إنزال طارق بن زياد جـنوده بساحل الأندلس وبين مـا تذكره الأخبار العربية القديمة عن وقائع فتح وهرز الفارسى وسيف بن ذى يزن لبلاد اليمن ، وهذا هو ما جعل كثيرا من أخـبار الفتح اليمنى يتسرب إلى قصة فتح الأندلس) [٢] .

على أن أهم إضافة دخلت إلى رواية الفتح من قصة وهرز كانت حول أحداثه . فقد رأينا كيف عمد القائد الفارسى إلى إحراق مراكبه حتى يقطع على جنوده كل سبيل لـلتفكير فى العودة أو فى النكوص على أعقابهـم ، فرأى بعض القصاص فى عصور متـأخرة أن يضيفوا قصة إحراق المراكـب إلى أحداث الفتح الأندلسى ، ولعـل ما دفعهم إلى ذلك كـان ما جاء فى نص خـطبة طارق الأصلـية : « . . . أين المفر ؟ الـبحر من ورائـكم والعدو أمـامكم ، فلـيس لكم والـله إلا الصدق والصبر » فقد رأوا أن خير ما يجسم هذا المعنى هو أن يجعلوا طارقا يحرق مراكبه) [٣] .

ويدعم الدكتور مكى رأيه فى أسطورية قصة حرق السفن فى فتح

(١ ، ٢) المكان السابق .
(٣) محمود على مكى ، مرجع سابق.

الأندلس حين يذكر أن اليمنية الذين عزيت إليهم الأسطورة الأولى كانوا من العناصر الأساسية فى فتح الأندلس . . . فكان هذا الأسلوب فى الترويح الأسطورى هو أسلوب يمنى معروف ، يقول الدكتور محمد مكى :

(يجدر بنا أن نشير بهذه المناسبة إلى أن كثيرا من رجالات الفتح الأندلسى كانوا من أصول يمنية . وقد رأينا أن طريف بن مالك الذى قاد أول سرية استطلاعية حلت بشواطئ الأندلس كان من النخع أو من معافر على رأى بعض المؤرخين . ومن معافر أيضا كان على وجه التحقيق عبد الملك بن أبى عامر - الجد الأعلى للحاجب المنصور بن أبى عامر - وكان من رجال طارق بن زياد وهو فاتح قرطاجنة من أعمال الجزيرة الخضراء ، هذا إلى عدد كبير من القبائل اليمنية التى استقرت منذ الفتح فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة ، ولا يبعد أن يكون لهؤلاء أو لذرياتهم نصيب فى إرفاد قصة فتح الأندلس بتفاصيل من تلك الأقاصيص القديمة حول ملحمة سيف بن ذى يزن وتحريره اليمن من الأحباش) [١] .

وفى سنة (١٥١٩ م) - أى بعد سقوط الأندلس (١٤٩٢ م) بنحو ثلاثة عقود فقط قدم التاريخ الأسبانى أسطورة حرق المراكب فى قصة فتح أسبانيا للمكسيك وهى القصة التى كان بطلها القائد أرنان كورتس (Arnan Cortes) وأيضا فقد خطب كورتس بعد إحراقه للسفن خطبة تشبه إلى حد كبير خطبة طارق [٢] .

---

(١) المكان السابق .

(٢) انظر تاريخ المغرب والأندلس :د/ أحمد مختار العبادى ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالأسكندرية ، ص ٦٦ ، وانظر د/ محمود مكى ، المرجع السابق .

ونحن لا يهمنا الوقوف كثيرا عند الأسطورة الأخيرة ، فليست داخلة فى موضوعنا ، وإنما يهمنا بيان هذا النهج الذى اعتمده بعض المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم الدكتور أحمد مختار العبادى ، والدكتور محمود على مكى ، فى معالجة قصة إحراق طارق للسفن.

ولقد كان الدكتور مكى صريحاً واضحا فنفى - بكل وضوح - قضية إحراق طارق للسفن واعتبرها أسطورة . وقد عالجها الدكتور أحمد مختار العبادى بالمنهج نفسه إلا أنه انتهى إلى القول - مع ذلك - إلى أنه لا يستطيع نفى القصة أو إثباتها معتمدا فى تردده فى الحكم على (وقوع أحداث مماثلة) - حسب تعبيره .

ومن هذه الأحداث ما روى من أن فاتح صقلية أسد بن الفرات أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان بسبب المجاعة التى حاقت بهم . . . فأراد حرق المراكب . . . لكنه ضرب ابن قادم زعيم المترددين فماتت دعوة التردد وعادت العزيمة إلى الأنفس [1] .

ونحن لا ندرى ما هى الأحداث المماثلة التى وقعت واتكأ عليها الدكتور العبادى فى هذه القصة حتى يبرر تردده فى الحكم ؟

إن مجرد إرادة أو إيهام أسد بن الفرات لجنوده بأنه يريد - أو أنه قادر- على إحراق السفن ليس حدثا يأخذ شكل الواقعة التاريخية ويتكئ عليه ، فهذه الإرادة أو الإيهام أو التهديد للجنود أمر لا ضير

(١) رياض النفوس ١/ ١٨٨ ، نقلا عن العبادى ، المرجع السابق .

فيه ، بل قد يكون مطلوبا ، وهو جائز بكل المقاييس العسكرية والشرعية ، أما تنفيذ ذلك ، والتضحية الانتحارية بجيش بأكمله ، وبأسطول قد يصعب تعويضه ، فهو الأمر الخطير الذى يجب أن نتوقف عنده . وهو ما لم يقدم لنا الدكتور العبادى دليلا عليه ، مع أنه أيد عدم وجود هذه القصة فى المصادر التاريخية التى ظهرت فى القرون الأربعة التالية . . .

بيد أننا نتفق مع الدكتور العبادى فى أن قصة حرق المراكب ـ أو أسطورتها ـ كانت شائعة ومعروفة فى أسبانيا ، لدرجة أن بعض الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها فى بعض أعمالهم الحربية ، ومازال الأسبان يستعملون مثلا شعبيا معناه « أحرقت كل سفنى » [١] « أو بذلت كل طاقتى » (He Quemado Todasnaves)

ونحن لا نستبعد أن يكون التراث الشعبى الأسبانى الذى راعته بطولة المسلمين الفائقة فى واقعة الفتح صاحب الفضل فى نسج هذه القصة، تقليلا من شأن النصر ، إذ هو لم يتم إلا بعمل انتحارى ، وليس بإيمان فى ظل ظروف عادية . ولقد ظهر نوع مستقل من الأغانى الشعبية الأسبانية المجسدة لقصة الصراع بين المسلمين والنصارى ، وهى أغان كان يطلق عليها أغانى الحدود Romances Fra nterizos[٢] ولعل هذا النوع من الأدب هو المسؤول عن اختراع هذه القصة. .ثم تلقفها بعض المسلمين، فبدت وكأنها إسلامية المنشأ.

---

(١) د/ العبادى ، المكان السابق .

(٢) د/ مكى ، المرجع السابق .

ولعل فى ظهور هذه القصة بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) ـ وليس قبلها ـ وفى فترة تأجج الصراع فيما يعرف بعصر الاسترداد ، وبداية تخاذل الجبهة الإسلامية الأندلسية وتفككها . لعل فى ظهور هذه القصة فى هذا الزمان ـ وليس قبله ـ دليلا على أن موطن هذه الأسطورة كان أسبانيا النصرانية ، ثم تسربت إلى الأندلس الإسلامية التى كانت فى حاجة إلى بطولات تقوم على الأساطير ؛ لأنها عجزت عن حل مشكلات حاضرها على ضوء حقائق تاريخها الذى صعب عليها ترسم خطاه .

لقد كان حديث فتح الأندلس ـ فى عصور اضمحلال أمر المسلمين ، وسقوط المدن الإسلامية ـ بما فى هذا الفتح من مشاهد بطولة رائعة ـ كان حديث الفتح هذا من أكثر ما يجرى على ألسنة المسلمين فى هذه البلاد ، وما يثير فى نفوسهم من مشاعر الفخر والاعتزاز ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا : إن هذا الحديث كان يزداد ترديده وإضافة المزيد إلى تفاصيله كلما تزايد ضعف المسلمين فى الأندلس واشتد ضغط القوى النصرانية عليهم ، فقد كانوا يحاولون أن يستمدوا من أحاديث الفتح وسير أبطاله ما يشد العزائم الخائرة ، ويحيى الهمم المتهالكة .

أما نصارى الأندلس فإنهم لم يكونوا يقلون عن المسلمين إقبالا على هذه الأحاديث ورغبة فيها ، فقد كانوا يريدون أن يتخذوا من ذلك الماضى عظة وعبرة ، هذا فضلا عن الإعجاب الخالص بالبطولة، حتى وإن كان البطل خصما لا مفر من مجالدته وقتاله .

وقد رأينا مثلا لذلك فى مجموعة من الأغانى الشعبية الأسبانية تنتمى إلى ما كانوا يسـمونه (أغانى الحدود) وهى تتناول الـصراع الطويل بين المسلمين والنصارى على مناطق الحدود ، وفيها مع ذلك كثير من مشاعر الإعجاب بـفروسية الخصم المسلم وبسالـته . وقد حمل ذلك نصارى أسبـانيا على تتبع أخـبار فتح الأندلس وملاحـم الصراع بين الإسلام والمسيحية فيما تلا الفتـح من العصور ، بل كان لهم نصيب فى إضـافة كثيـر من الأحاديـث القصـصية والأسطـورية إلى تـلك الأخبار[1] .

وهكذا ـ سـواء من جانب الجبهـة الإسلامية أم الأسبانـية ـ نرى الصلة وثـيقة بين إحراق طارق بـن زياد للسفن ، وبـين الأسطورة ، وقد رأى الطـرفان مصلـحة فى استـغلال الأسطورة ، هـذا للتغـنى بالماضى حين عز عليه الحاضر القوى ، وذاك للانتقاص من قيمة نصر طارق فى فتح الأندلس .

(١) محمود على مكى ، المرجع السابق .

خـطـبة طـارق ...

ما مدى دلالتها على حرق السفن ؟

يعتمد القائلون بحرق طارق بن زياد للسفن التى عبر عليها على بعض العبارات التى وردت فى الخطبة المنسوبة إليه ، والتى توهم بوقوع هذا الإحراق - من وجهة نظرهم - أو توهم بعدم وجود أسطول سواء كان قد أحرق أم أبعد ، كما تفيد النصوص من وجهة نظرنا - !! بيد أننا لا نجد ما يوجب أن يكون عدم وجود الأسطول على الشواطئ الأسبانية مفيداً - بالضرورة - لوقوع الإحراق ، فقد يكون طارق قد أمر الأسطول بالابتعاد عن الشاطئ ، لإيهام الجند بأن (البحر من ورائهم) وبالعودة إلى المغرب لإحضار مزيد من المؤن أو العتاد .

على أن عبارة (البحر من ورائكم) الذائعة لا توجب بالضرورة إحراق السفن أو ابتعادها . . فوجود السفن فى البحر لا يعنى أن البحر قد تحول براً ، وأن مخاطر الانسحاب مأمونة بالكامل ، بل ثمة خسائر كثيرة يمكن أن تقع عند الهزيمة مع وجود السفن أيضا . . وبالتالى فقد يصح ورود العبارة مع وجود السفن ولا تعارض بين الأمرين ،إذ البحر من وراء الجنود والعدو من أمامهم على كل حال.

بيد أن المشكلة الحقيقية هى فى مدى الثبوت التاريخى لخطبة طارق نفسها ، فالنقد التاريخى الحديث المتكئ على المصادر ، وعلى النقد المنطقى يشكك فى نسبة الخطبة إلى طارق ، أو على الأقل فى

نسبة هذه النصوص البلاغية التى شاعت فى كتب الأدب وبعض كتب التاريخ للخطبة .

ومع هذه الشكوك ـ فإن الاستدلال بـالخطبة على ثبوت الإحراق يبدو استدلالا بضعيف على ضعيف .

إن مصدر المشكلة فى خطبة طارق ـ كما ذكرنا ـ هو هذه البلاغة التى تميـزت بها الخطبة مـع أن طارقا عرف بأنه بـربرى الأصل . . . فمن أين له هذه البلاغة ؟

ولقد اختلفت النصوص التـى وردت بها الخطبة وتباينت ، وكان هذا من عوامل الشك فيها .

وقبل أن نتكلم فى مدى الصدق التاريخى لهذه الخطبة ، نوردها وفق أكـثر نصوصـها شيـوعا وبلاغة فـى كتب الـتاريخ والبـلاغة ، وبالتالى نقف وقفة متأنية أمام قضية صدقها التاريخى .

وهذا نص خطبة طارق بن زياد عـند فتح الأندلس ، كما وردت فى « نفح الطيب » لأحمد المقرى التلمسانى [(١)] :

« أيها النـاس ، أين المفر ؟ البحـر من ورائكم والعدو أمـامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيـتام فى مأدبة اللـئام . وقد استقبـلكم عدوكم بجـيشه وأسلحته، وأقـواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سـيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه مـن أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام

(١) ١ / ٢٢٥ طبع بيروت .

على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم . بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملكتم دونى على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، أبدأ بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ودون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى إنجازكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله » .

فإذا تركنا هذه الصيغة التى أوردها المقرى صاحب نفح الطيب ، والتى تعتبر أكثر الصيغ الواردة للخطبة إطنابا وبيانا وبلاغة ، فإننا لا

نكاد نجد صيغة تتشابه معها فى أى مصدر من المصادر ، اللهم إلا فى الذين نـقلوا عن نفح الـطيب ، ولا قيمة لـرواياتهم لأنهم مـحدثون نقلـة . بل إن ابن الكردبـوس الذى يعتبـر من القلائل الـذين أشاروا للخطبة قد أوردهـا بصورة جد مقتضبة . . . ونحن ننـقل نصه كاملا ليعرف حجم اقتضابه . . . يقول :

(ورحل طـارق نحو قـرطبة بعـد أن أحرق المراكـب (!!) وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) ثم يقول :

(ورحل لذريق قاصدا قـرطبة يريد طارقا ، فلما تـدانيا ، تخير لذريق رجلا شجاعا عارفا بالحـروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل فى عسكر طارق فيرى صـفاتهم وهيآتهم ، فمضى حتـى دخل فى محلة المسلـمين ، فأحس بـه طارق فأمر ببـعض القتلـى أن تقطع لحـومهم وتطبـخ . فأخذ الناس القـتلى ، فقطعـوا لحومهم وطبخـوها ، ولم يشك رسول لذريق أنـهم يأكلونها . فلما جن اللـيل أمر طارق بهرق تلـك اللحوم ودفـنها ، وذبح بـقرا وغنـما وجعل لحـومها فى تـلك القدور . وأصـبح الناس فنودى فـيهم بالاجتـماع إلى الطعام فـأكلوا عنده، ورسول لذريـق يأكل معهم . فلما فرغـوا ، انصرف الرسول إلى لـذريق وقال لـه : أتتـك أمة تأكـل لحوم الموتـى من بـنى آدم، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على (الموت والفتح) فداخـل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا) [1] .

---

(١) تاريخ الأندلس ، مستلة من الاكتفاء لابن الكردبوس ص٤١ ـ ٤٧ بتحقيق العبادى .

.. وهـذا كل مـا أورده ابـن الكـردبـوس عن خـطـبة طـارق العصماء!!

بيد أنها وردت فى أقدم المصادر الأندلسـية التى كتبت عن الفتح الإسلامى لأسبانيا على النحو التالى :

(أيها الناس ، أين المفر ؟ البحـر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس لـكم والله إلا الصدق والصـبر . ألا وإنى قادم إلى طاغـيتهم بنفسى لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه) [١] .

ولسنا فى حاجة بـعد هذين النصين أن نتتبع بقـية الروايات التى وردت بها (خطبـة طارق) . . . وحسـبنا أن نـذكر أن هــذه الخطبة لا تكـاد تـرد ـ إن وردت ـ فى مـصـدريـن على نحـو متشابـه فى الألفاظ والتعبيرات ، وإن اقتربت مـن المضـمون . . وهـو أمر يؤكد لنا أن (أسلوب) الخطبة قد لعبت فيه أهواء البلاغة والبيان ، وتلقاه كل ناقل بما يجب من الفصاحة ، فأضفى عليه من نفسه وأسقط عليه من فصاحته .

ولهذا نجد نصها فى تاريـخ عبد الملك بن حبيب [٢] مختلفا عن نصها فى « الإمامة والسياسة » المعزو لابن قتيبة الدينورى [٣] . وهما يختلفان عن النص الوارد عند ابن خلكان [٤] وعن النص الوارد عند

(١) تاريخ ابن حبيب (نص خاص بافتتاح الأندلس) ، حققه الدكتور محمود مكى صحيفة مدريد ١٩٥٧ .

(٢) المكان السابق .

(٣) ٢ / ١١٧ .

(٤) وفيات الأعيان : ٤/ ٤٠٤ بتحقيق محيى الدين عبد الحميد .

المقرى التلمسانى صاحب « نفح الطيب » [1] .

ولا تكاد توجد نصوص للخطبة فى غير هذه المصادر التاريخية، باستثناء كتب الأدب والبلاغة التى لا يعول كثيرا عليها فى ثبوت النصوص التاريخية ؛ لأنها تركز فى الأعم الأغلب على مضمون النص أكثر من صحته التاريخية .

وقد أورد ابن عذارى المراكشى فى كتابه الموسوعى « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » عدداً من الآراء حول موقعة وادى لكة أو شذونة - وهى المعركة الكبرى التى انتهت بفتح الأندلس على يد طارق سنة ٩٢هـ - ومقدماتها ،فنقل عن (عريب)، وعن صالح بن أبى صالح ، وعن ابن القطان ، وعن الرازى ، وعن الواقدى ، وعن عيسى بن محمد من ولد أبى المهاجر دينار ، وعن غيرهم [2] ، لكنه - مع ذلك - لم يورد أدنى إشارة إلى هذه الخطبة، ولا إلى إحراق طارق للمراكب !! كما أن ابن الأثير فى «الكامل» ذكر أنه يكتب ما يكتب عن فتح الأندلس (من تصانيف أهلها إذ هم أعلم ببلادهم) [3] ، ومع ذلك فلم يذكر شيئا عن خطبة طارق .

بل إن الدكتور محمود على مكى - وهو الثبت المحقق فى التاريخ الأندلسى وأدبه - يرى أن هذه الخطبة دخلتها عناصر أسطورية مثلما دخلت غيرها ، بل لعلها - فى رأيه - مستحدثة على غرار الخطبة الأسطورية المختلقة التى نسبت إلى وهرز فاتح اليمن صحبة

(١) مكان سابق .
(٢) ٢ / ٤ ، ٨ طبع بيروت .
(٣) الكامل : ٥٥٦/٤ طبع بيروت ، دار صادر .

سيف بن ذى يزن . . . وهو يقول بهذا الصدد :

(وربما كان أول مظهر لهذا التسرب ـ تسرب أسطورة وهرز إلى الفتح الأندلسى ـ ما نراه فى خطبة طارق بن زياد ، وقد كان نصها القديم الموجز الذى ورد عند عبد الملك بن حبيب مماثلا فى خطوطه العامة لنص خطبة وهرز كما ساقها لنا هشام الكلبى . غير أن مثل هذا النص المحكم البديع لم يكن ليرضى أخيلة الناس فى العصور المتأخرة فإذا بهم يضيفون إليه فتستطيل الخطبة حتى تبلغ أضعاف نصها الأول ، وكأن ذلك لم يكفهم فإذا بهم يزوّقونها بألوان من السجع وزخارف الألفاظ إلى حد يجعل الباحث يحكم من النظرة الأولى بأن الخطبة تعرضت لزيادات متعاقبة لا شك فى أنها مصنوعة)[1] .

والسؤال الوارد هنا ـ فى ظل هذا العرض :

ما مدى الصدق التاريخى فى هذه الخطبة من جانب ، وفى نسبتها إلى طارق بن زياد من جانب آخر ؟

أما الصدق التاريخى فى (جوهر) خطبة طارق بن زياد فنحن نميل إليه ، فهو أمر درج عليه الفاتحون العرب والمسلمون ، ذلك لأن المسلمين كانوا يعتمدون فى انتصارهم على الروح المعنوية ، والإيمان القوى بالله وبما أعده للشهداء ، فكانت حروبهم تهدف إلى غايتين لا

---

(١) محمود على مكى : الكتاب التذكارى لجامعة الكويت ١٩٧٦ مقال حول أسطورة حرق السفن .

ثالث لهما : النصر لإعلاء كلمة الله أو الشهادة .

ولو أننا تعمقنا فى بعض روايات خطبة طارق لوجدنا فيها عبارة (القتل أو الفتح) أو (انتصروا أو موتوا) ، وهما ـ فيما أعتقد ـ الترجمة لعبارة (النصر أو الشهادة) التى أعتقد أن طارق بن زياد قد خطب بها ، وبشيء حولها ، فى أصحابه.

أما من ناحية (نص الخطبة) بهذه الديباجة المشرقة والسجع غير المتكلف ، والبيان الرائع ـ الذى ورد فى النص الذى تتداوله الكتب الأدبية والمدرسية ـ فهذا ما أستبعد أن له أساساً تاريخياً ، سواء من ناحية انقطاع السند أو المتن.

فمن ناحية انقطاع السند : نعرف أن الخطبة لم ترد إلا بعد عدة قرون تصل إلى العشرة، إذا ما نظرنا إلى رواية نفح الطيب الذائعة الصيت . . أما ما قبلها من الروايات فليس فيها شيء من هذه الديباجة المشرقة ـ على النحو الذى بسطناه سلفاً .

ومن ناحية المتن : فإنه من المستبعد عقليا أن يكون طارق بن زياد قادراً على صياغة تلك الخطبة ، ولا سيما وأن مثل هذه الخطبة تقال ارتجالا فى الغالب ولا تقال بعد إعداد وتدبيج . ومبعث عدم قدرة طارق على إعداد تلك الخطبة أنه كان (بربرى الأصل) ـ على أرجح الآراء وأقواها وأكثرها ــ فهو بربرى من (نفزة) كان مولى لموسى بن نصير من سبى البربر. وقال آخرون: إنه فارسى ، والنتيجة واحدة . فهو أعجمى على أية حال ، وإن كنا نرجح ــ كما ذكرنا ــ بربرته . . . وقد أورد صالح بن أبى صالح فى نسبه ــ كما نقله عنه

ابن عـذارى : ــ أنـه (طارق بن زيـاد بن عـبد الله بـن رفهـو بن ورفجوم بن نيزغاش بن ولهاص بن يطوفت بن نغزاو) [1] .

وليست المشكلة فقط فى (بربرية) طارق التى يتعذر معها ــ مع حداثة العهد بالعربية ــ إبداع مثل هذه الخطبة . . بل المشكلة ــ أيضا ــ فى الجيـش المتلقى لـلخطبة ، إذ أن هـذا الجيش ــ كذلـك ــ كان معظمه من البـربر . فكيف توجه خطبة بهذه الرصانـة العربية لجيش بربرى ؟ وما فائدتها فى هذا الوقت العصيب الذى يراد فيه لكل كلمة أن تؤتى ثمارها ؟ ومن هنا فنحن نرجح أنه ربما ألقى خطبته باللسان البربرى ، ثـم ترجمها إلى العربـية بعض من كانوا فى الجـيش حتى تصل معانيها إلى عنصرى الجيش معا ، وهما البربر والعرب .

ونحن نرى أن إطار الخطبة كـان هو الإطار المحدود الـذى ألمحنا إليـه ـ وهو النصـر أو الشهادة ـ ثـم جاء المدونـون والكتاب الـعرب فتـوسعوا فيـها ـ جريا عـلى عادتهـم ـ بالبـيان والسجـع والتحلـية والإطناب .

ومعـروف أنه فى عصـور مختلـفة ـ من حضـارتنا ـ لم تـكن المترجمات تلتزم بالديباجة الجافـة للأصل المترجم عنه ، بل تعمد إلى (تعريـب) المنقول لـفظا وأسلـوبا . . . بل تحاول إفـراغه فى روح عربية لو استطاعت إلى ذلك سبيلا .

فلهذا ألبسـت خطبة طارق الثوب العربى ، وتوسع فـيها ألفاظا

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٥ بتحقيق بروفنسال ، ونشر بيروت .

ومعانى حتى وصلتـنا بهذه الصورة التى نقلها إلينا المـقرى التلمسانى فى كتابه « نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب » .

وهذا ما نراه فصل الخطاب فى هذه الخـطبة التى دخـلت الأدب ـ كخطبة عصـماء ـ من أوسع الأبواب . لكن مساربهـا بدأت تضيق عندما حاولت الدخول فى مجال التاريخ .

وفى ضوء هذا التحليل ـ سـواء حول ثبوت نص الخطبة أو حول دلالتها على حـرق السفن ـ يبدو أن الاعتماد على الخـطبة فى إثبات قصة إحراق السفن ليس استدلالا فى موضعه ، فليست الخطبة قطعية الثـبوت . وإذا ثبتـت ـ فى صورتهـا الوجيـزة التى وردت عنـد ابن حبيب ـ والتى يمكـن نسبتها إلى طارق ـ فليست ـ مـع ذلك ـ قطعية الدلالة ، بل إنها بعيدة كل البعد عن الدلالة المباشرة لإحراق السفن، وتحتمل فى دلالتها أكـثر من وجه ، ولهذا تكاد تفقد قيمتـها بالنسبة لقضية إحراق السفن .

قضية إحراق طارق للسفن

فى نظر المؤرخين المحدثين

وردت قصة إحراق السفن كمسلمة تاريخية لدى كثير من الكتب المدرسية والشعبية فى العصر الحديث ، وتكاد القصة ترد دون وقوف عندها أو تحليل لها لدى عدد كبير من هؤلاء . ولم نشأ أن نقف عند هذه البحوث التى كتبت بأقلام غير متخصصين ، لأنه أمر يخرج عن نطاق البحث العلمى الرصين ، وحسبنا أن نقف عند المراجع التاريخية العلمية ، لأنها - على الأقل - أكثر من غيرها ، وقد وقفت من القضية موقف التمحيص والتحليل .

ولم نجد فيما بين أيدينا من المراجع التاريخية الحديثة من ذهب إلى تأييد قصة إحراق السفن إلا عدداً محدوداً من المراجع (١) ، ومن الغريب أن الدكتور أحمد مختار العبادى ، بعد أن يورد صلة القصة بالطابع الأسطورى عند الشعب الأسبانى ، ينتهى القول بالتردد فى الحكم (٢) .

النافون والمتجاهلون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما النافون للقصة فهم الجمهرة الغالبة من المتخصصين فى

---

(١) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامى : د/ أحمد شلبى حـ ٤ طبع القاهرة ، و مع المسلمين فى الأندلس : على حبيبة ، و تاريخ الإسلام السياسى: حسن إبراهيم : ١/ ٣٢٠ ط ٩ مصر ،والإسلام والحضارة العربية :محمد كرد على ص ٢٥٣ ط مصر.

(٢) فى تاريخ المغرب والأندلس : ص ٦٦ ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية.

الدراسات التاريخية والأندلسية ، وكل ما يلاحظ فى هذا المقام هو أن معظم هؤلاء لم يقف عند القصة الوقفة الكافية التى تتناسب وشيوع القصة فى الذهنية المعاصرة .

بل إن كثيرا منهم قد تجاهلها بالمرة ، ولم يورد لها ذكرا على الإطلاق ، مع أننا لا نعتقد أن هذا التجاهل قد يكون من باب السهو، فليست القصة حدثا ثانويا أو أمراً عابرا بهذه الدرجة [1].

ومن المعروف أن الأمير شكيب أرسلان كان يقف موقف المحلل للكثير من القضايا ، ومع ذلك فهو لم يعرض لقصة الإحراق ، وإنما اكتفى بذكر بعض المسلمات التاريخية كقوله : (إن موسى جرد تجريدة لاثنى عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر ، فعقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله واحتز رأس لذريق وبعث به إلى الخليفة فى دمشق (!!) ، وفى أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليطلة ، وقد روى أحد مؤرخى العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب فى القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا فى يده وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره . وطارق بن زياد هو الذى سمى باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق) [2] .

---

(١) من هؤلاء على سبيل المثال : الدكتور إبراهيم بيضون فى كتابه : الدولة العربية فى أسبانيا ط بيروت ص ٧٢ ، ٧٣ ، ومنهم محمد حسن قجه فى كتابه : محطات أندلسية ط دار السعودية ١٩٨٥ ص ١٦ ، ١٧ ، ومنهم جورجى زيدان فى رواية فتح الأندلس ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، وانظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم ٢/٣٥٨ ، ٢٥٩ نشر الأسكندرية والدكتور أحمد شكرى : قرطبة فى العصر الإسلامى ص ١٠ ، ١١ ط ١٩٨٣ ولطفى عبد البديع :الإسلام فى أسبانيا ص ٣/ ط ٢ مصر .

(٢) تاريخ غزوات العرب : ص ٢٩ ، ٣٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

وهذا كل ما أورده شكيب أرسلان فى المقـام الذى كنا نطمع فيه أن يورد شيئا عن قصة إحراق السفن .

أما المؤرخ العسـكرى الأستاذ محمود شيـت خطاب ـ وهو الذى عرف عنه وقوفه عند مثل هذه الوقائع بتحليلها من الوجهة العسكرية « والاستراتيجية » على الأقل ـ فإنـه لم يقف عندها كذلك إطلاقا ، وكل ما ذكـره حول فتوحات طـارق أن طارقا فتـح مدينة قرطـاجنة الجزيرة ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بها وأقام قاعدة حربية فى موضع يقابل الجزيرة الخـضراء ، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فـتح الجزيرة الخضراء وسيطروا علـى المجاز إلى الأندلس ، فزحف لذريق لصـد المسلمين ، فكتب طارق إلى مـوسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قـبل له به ، فأرسل إليه مدداً مـن خمسة آلاف من المسلـمين ، والتقى الجـيشان فى يوم الأحـد ٢٨ رمضان سنة اثـنتين وتسعين هجرية / ١٩ يوليـو سنة ٧١١ م علـى وادى برباط أو وادى لكة قرب مدينـة شذونة ، واستمرت المعركة ما يقرب مـن ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحـقة ، وكانت هذه المعركة هى المعركة الحاسمة التى فتحت أبواب الأندلس للمسلمين [١] .

وهكذا عبر القصة ـ بتجاهل تام ـ كاتبان كبيران كنا نتوقع منهما أن يقفا عندها وأن يـحللاها التحليل المناسب لتخـصص كل منهما ، أولهمـا من الناحـية الإسلاميـة والتاريخيـة ، وثانيهـما من النـاحية

---

(١) قادة فتح المغرب ١/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ ط دار الفكر ١٩٧٨ م .

العسكرية ، ولكنهما آثرا أن يتجاهلاها بالمرة !!

الرافضون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما أستاذنا المؤرخ محمد عبد الله عنان فقد عالج قضية إحراق السفن فى القسم الأول ـ العصر الأول ـ من موسوعته حول دولة الإسلام فى الأندلس ، فقد مال إلى نفى القصة ، وإن كان قد تردد فذكر أنها (عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس) [1] ونحن لا نرى فيها ـ لو صحت ـ أية بطولة ، بل نراها عملا انتحارياً لا يقدم عليه المسلمون ،ومع ذلك فالأستاذ عنان يميل إلى نفيها ـ كما ذكرنا ـ بل هو يراها (واقعة يغلب عليها لون الأسطورة وإن كانت مع ذلك تعرض فى ثوب التاريخ الحق) [2].

ويقدم الأستاذ عنان لنفيها عدداً من الأدلة منها : أننا (نعرف أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق ، وهنا تذكر الرواية أن طارقا ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟) .

(١) ص ٤٩ مكتبة الخانجى ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٦٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٤٨ .

ويجيب الأستاذ عنان على تساؤله :

(إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئا عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقا أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ، وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال : إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ، فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » . وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى أسبانيا ، ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقا ألقى فى جنده مثل هذا الخطاب فقد نجد تفسيرا لقوله فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات) [1] .

وهكذا يميل الأستاذ عنان ـ وهو أحد الباحثين المعاصرين الكبار فى التاريخ الأندلسى ـ إلى استبعاد (أسطورة) إحراق السفن

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ ، ٤٩ .

ـ حسب تعبيـره ـ وهو يقدم لنا ـ وهذا هو الجديد فـى رأيه ـ تفسيراً لخطبة طارق التـى توهم منها بعضهم ـ واستدل بـها ـ على أن طارقا أحرق السفن ؛ لأن عبارة (البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم) قد تعنى ملـكية يوليان للسفـن ، وعدم قدرة المسلمين ـ بالـتالى ـ على جعلهـا طوع أوامرهم . . وهو مجرد افـتراض من أستاذنا الـكبير ، ونحن لا نميل إليه ، لأننا لا نؤيد القـول بأن المسلمين لم يكن لديهم أسطولهم الخاص بعد موقعة ذات الـصوارى (٣٥ هـ) البحرية بنحو ستين سـنة !! ، كما أن الاسـتراتيجـية العسـكرية السـليمة تـقضى باستبعاد هذا الفرض ، فضلا عن الـنصوص التاريخية المؤيدة لوجود سفن لدى المسلمين أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد .

على أن أستاذنا الدكتور حسين مـؤنس لم يقف وهو يؤرخ لفتح الأندلس عند قصة إحراق طارق للسـفن ، ليس عن إهمال أو نسيان لها ، ولكن لأنه ـ كما بدا لنا ـ لا يراها جديرة بالوقوف عندها، فهو لم يشأ أن يعرض لـها فى متن كتابه « فجر الأندلـس» ، وإنما اكتفى بإيراد إشارة وجيزة فى الهامش يذكر فيها أن المؤرخين المحدثين يميلون (إلى القول بأن طارقا عمد إلى السفن التـى عبر عليها فأحرقها لكى يقـطع كل أمل لجـنوده فى الـعودة إلى إفريـقية ، ولـيدفعهـم إلى الاستـبسال فى الـقتال ، ولـم يذكر تـلك الواقعـة من القـدماء إلا الإدريسى وهو من رجال القرن الثانى عـشر الميلادى ـ كتب جغرافيته سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م ـ ولهذا نشك فى صحة هذا الخبر، ثم إن طارقا لم يستطع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان) [١].

---

(١) فجر الأندلس : ص٦٩ ، الدار السعودية للنشر الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .

وقد أورد الدكتور مؤنس هذا الهامش وهو يتحدث عن تحصين طارق للموضع المعروف بجبل طارق تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتمى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً [١] . فكأن الدكتور مؤنس يثبت فى المتن - من خلال إبرازه لتحصين طارق للموقع - ما يؤكد وجود احتمال للانسحاب لدى طارق ، وهو بهذا ومن خلال التوضيح فى الهامش ينفى تلك القصة الشائعة القائلة بحرق طارق للسفن ، فكأن دحضها عنده لا يستحق أن يوضع فى المتن ولا أن يلقى اهتماما أكثر من هذا القدر الهامشى .

أما الدكتور عبد الرحمن الحجى فى كتابه « التاريخ الأندلسى »، فقد أنكر قصة حرق السفن هذه من منطلق عقلى وإسلامى خالص . وقد أدار حواراً حول بعض الحجج التى يوردها القائلون بحرق طارق للسفن ، ثم رد على ما طرحه هؤلاء من حجج .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجى : (هل حقا أن طارقا أحرق السفن التى عبر بها المضيق ، كى يقطع على الجيش الإسلامى كل أمل فى العودة فيستميت فى الدفاع ؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك . لكن لماذا يحرق طارق السفن ، سواء امتلكها المسلمون أو يليان ؟ كأن طارقا وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة ، وأنهم من ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة ، وطارق متأكد من هذه المعانى .

فإذا كانت السفن ليليان فليس من حق طارق التصرف بها . وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملا عسكرياً سليماً أو مناسباً ، مادام

---

(١) المكان السابق .

يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأى غرض ، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة ، واحتاجها فيما بعد .

إن دوافع المعانى الإسلامية والهدف الذى جاء الجيش من أجله لأقوى فى الاندفاع من أى سبب آخر ، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، بل لذلك أتوا. والمصادر الأندلسية ـ لا سيما الأولى ـ لا تشير إلى قصة حرق السفن التى لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة) [1] .

ومن المؤرخين المعاصرين المتخصصين فى الدراسات الأندلسية الذين وقفوا عند القصة وأدلوا فيها برأى ـ الدكتور محمد عبد الحميد عيسى فى كتابه عن « الفتح الإسلامى للأندلس » فقد جاء فى كتابه آنف الذكر [2] :

(حاولت ، مع اقتناعى الكامل بعدم حدوث هذه الواقعة تاريخيا واقتناعى الكامل بأن طارق بن زياد ما كان ليقدم على مثل هذا العمل ، أن أجد تعليلا لظهور هذه القضية فى بعض المدونات التاريخية ، والقراءة المتأنية لذلك الخبر عند ابن الكردبوس ، وعند المقرى يمكنها أن تلقى الضوء على تلك المسألة التى اختلف حولها المؤرخون ، يتحدث ابن الكردبوس عن جاسوس دسه لذريق ملك

---

(١) (التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة (٩٢ ـ ٨٩٧) : د/ عبد الحميد على الحجى: ص ٦٢، طبع دار القلم بدمشق والكويت الطبعة الأولى ١٣٩٦).
(٢) ص ١١٧ هامش ـ طبع القاهرة ـ أولى ـ ١٩٨٥ م .

أسبانيا داخل الجيش الإسلامى ليتعرف له على دخليتهم ، ويشعر المسلمون بالجاسوس ، فلا يقبضون عليه ، إنما يستفيدون من وجوده، ويأمر طارق جنوده ، بأن يقطعوا جثث الموتى من أسراهم ، ويضعوها فى القدور ويغلوها على النار ، ثم يقومون خلسة برمى لحم الموتى ، ويحلون محله البقر والغنم ثم يدعون الناس للطعام ، فيتصور الجاسوس أن المسلمين يأكلون لحوم البشر ، ومن هنا :هل عمل المسلمون نفس الشىء وأوهموا الجاسوس حرقهم لمراكبهم؟)[1].

مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحدثوا بها لإيقاع الرعب فى قلوب عدوهم وهذا ما حدث بالفعل ، عاد الرجل إلى لذريق ليقول له : (أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح ، فداخل لذريق من ذلك وجيشه من الجزع ما لم يظنوا) [2] .

ولعل رواية المقرى أكثر وضوحاً وتؤيد هذا الاتجاه الذى أتصوره، فهو بعد أن يقص رواية هذا الرجل الذى دسه لذريق فى صفوف المسلمين ، يذكر بأنه عاد إلى لذريق ليقول له : فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياسا لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين

(١) إننا نميل إلى إمكانية وقوع هذا. . . وهو مما يجوز حربيا من وجهة النظر الإسلامية ، وانظر بقية النص وتحليلا له عند حديثنا عن رأينا فى القضية فى نهاية البحث .

(٢) انظر ابن الكردبوس ص ٤٨ ، ٤٩ .

أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لـهم فى أرضنا مكان مهرب ، فرعب وتضاعف جزعة [1] .

وقد تعرض لقصة إحراق السفن مـن المعاصرين ـ أيضا ـ الدكتور مـحمـد محـمد زيـنون خـلال دراسة لـه عن « الـفتـح الإسلامـى للأندلس»[2] ، فرأى أن طارقا لم يحرق السفن (لأنه يعلم أن الجنود الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التى يملكها الجيش الإسلامى حتى يـضطر إلى قطـع أملهم فى الـتقهقـرإذا أرغمتهم الـظروف إلى ذلك)[3] .

ويضيف الباحث أن طارقاً يعلـم أنه قد اضطر قبل خوض المعركة إلى طلب المدد من مـوسى بن نصير عندما رأى كثـرة جنود القوط ، فأمده بخمسة آلاف جندى عبرت بهم السفن إلى الأندلس ، ولا شك أنه لو طلب مدداً ثـانيا أو ثالثا لأمده موسى . فعـلى فرض صحة ما يروى من إحراق السـفن ، فكيف كان المدد الذى يرسلـه إليه موسى يستطيع أن يصل إليه ؟ .

وأخيراً يـتساءل الباحـث : كيف عبر موسـى بجيشه الـذى بلغ ثمانية عشر ألفاً بعد ذلك بعام واحد ؟ [4]

والباحث محق فـى تساؤله، فإن فرصة عام واحد لا تكـفى لبناء

---

(١) نفح الطيب : ١/٢٥٨ .

(٢) دراسة منشورة بمجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض العدد الخامس ١٤٠١ هـ .

(٣) المكان السابق . (٤) المكان السابق .

أسطول جـديد . . . ثم إن بنـاء الأسطول عمـل ليس سهـلا ، بل يقتضى الجهد والمال والرجال . . . ونحن نضيف عددا من التساؤلات من جانبنا :

ما الفائدة من هدم أسطول لنبنى آخر ؟

وهل كان الأمر يقتضى المغامرة بهذا العدد من المسلمين ؟

ولقد دخل المسلـمون قبل فتح الأندلس معارك كـبرى ذات تأثير (استراتيجـى) أعظم من فتح الأندلس ، فـلماذا لم يبيحوا لأنـفسهم مثل هذا العمل الانتحارى ؟

ولنفترض أن المسلمين قد هـزموا لأول جولة فى فتح الأندلس ، ألم تكن هناك فرص أخرى للكر . . . كما هزموا غير مرة فى فتحهم للمغرب الذى استمر فتحهم له أكثر من ستين سنة ؟

إن كل هذه التـساؤلات تثير علامات اسـتفهام كبيـرة حول قصة إحراق السفن .

وينفى القصة ويورد أسباب نفيه لـها الدكتور عبد العظيم رمضان ـ أحد المؤرخين المعاصرين ـ فيقول :

(وفى الواقـع فإن طارق بن زيـاد لم يكن لـيجرؤ علـى حرق مراكبه لسببين) :

الأول :

أنها كانت مراكب مختلطة ، أى مـراكب يملكها جوليان حاكم

سبتة ، ومراكب إسلامية من الأسطول الإسلامى الذى بناه موسى ابن نصير .

الثانى :

أن حملة طارق لم تكن سوى البداية فى فتح الأندلس ، وكانت القوة العسكرية التى عبرت تحت قيادته إلى الشاطئ الأسبانى غير كافية لإتمام هذا الفتح . وكان طارق يعرف أنه ان عاجلا أو آجلا ، سوف يطلب الإمدادات والنجدات من موسى بن نصير . وبالتالى فقد كان فى حاجة إلى المزيد من السفن لهذا الغرض وليس إحراق السفن ! . ومن ثم فإن قصة حرق المراكب تبدو خيالية تماما ، ولا يوجد ما يبررها عقلا) [1] .

وهكذا ـ ومن خلال هذا العرض الذى حاولنا فيه الوصول إلى شبه استقصاء لآراء المؤرخين المعاصرين فى قضية إحراق السفن ـ نجد أن هذه القصة لم تتمتع بالتأييد من المؤرخين المحدثين ، بل تعرضت للنقد من شتى الجوانب ، ولم تستطع أن تقف على أرض ثابتة .

---

(١) الحقيقة التاريخية فى فتح الأندلس ، مجلة أكتوبر عدد ٤٠٧/ ١٢/٨/١٩٨٤ .

إحراق السفن فى الإطار الشرعى

كان لا بد من الوقوف مع قصة إحراق السفن وقفة تعتمد على أوثق مناهج النقد ، ليس لمجرد إثبات وقوعها من عدمه ، بل لأن لهذه القصة بعداً آخر غير بعدها التاريخى ، وهو البعد التشريعى والإسلامى ، فالحديث يدور عن فترة تنتمى إلى عصر التابعين ، وحتى فتح الأندلس ، وجبوش طارق بن زياد ، وموسى بن نصير كان فيها تابعيون كذلك . ولقد كان بعض الصحابة المشهورين أحياء إلى أيام الوليد بن عبد الملك [1] ، ولربما وجد عدد كبير من الصحابة من غير المشهورين ، ومع ذلك فاتفاق التابعين أو إقرارهم على عمل ما ، دون أن يلقى الرفض أو المقاومة ، إنما يمثل موافقة منهم ، وهم أهل للاحتجاج بأعمالهم فى عالم التشريع ، فما يعقل أن يتواطأ التابعون على منكر لا يقره الإسلام .

وعلى هذا الأساس فإن لنا أن نتساءل : كيف سكت التابعون على إحراق طارق للسفن ؟ وهل يعنى هذا مشروعية هذا العمل من الناحية الإسلامية ؟ وفى عصر كعصر التابعين ولما ينته القرن الأول الهجرى : هل تسمح هذه البيئة الإسلامية بإحراق السفن دون معارضة ، ودون احتجاج من الساسة أو الفقهاء أو المفكرين أو الشعراء ؟ لقد اختلف الصحابة من قبل وتقاتلوا من أجل مقتل عثمان

---

(١) نحن نذكر منهم أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ .

والخلاف على أسبقية القصاص أو استتباب الحكم ، وكل منهم كان يؤمن بأنه يقاتل عن مبدأ شرعى ؟ ولمجتهدهم المخطئ أجر وللمصيب أجران . فهل يتواطأ التابعون على إحراق أسطول إسلامى فى وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى الأساطيل لمواجهة الرومان؟!!

ومن زاوية أخرى ـ شرعية أيضا ـ هل يجوز فى الإسلام مبدأ المغامرات الانتحارية ؟ لقد انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد فى موقعة (مؤتة) بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، حين أدرك خالد ومعظم الجيش أن المعركة انتحارية إزاء هذا الفارق فى العدد بين جيش المسلمين وجيش الروم . وقد كان هناك مسلمون فدائيون يطلبون الاستمرار فى القتال، ومع ذلك آثر الجيش الانسحاب بقيادة خالد بن الوليد ، وسماهم الرسول عليه الصلاة والسلام (الكرار) ردا على من سخروا منهم فى المدينة وسموهم (الفرار) . أليس هذا السلوك النبوى تشريعا إسلاميا يحرم المغامرات الانتحارية ، ويجيز الانسحاب فى حالة وجود مفاجآت تجعل المعركة إبادة للمسلمين ؟ وبالنسبة لقصة إحراق طارق للسفن هل كان ثمة موجب لهذا الإحراق مع أنه لم يكن يعلم شيئا عن نتيجة المعركة ؟! فإذا كان طارق قد توقع الهزيمة للجيش الإسلامى ومن أجل هذا أحرق السفن فإنه يدخل فى باب المغامرات الانتحارية التى يحرمها الإسلام . وهو بهذا ـ ومن معه من التابعين ـ لم يستوعبوا التوجيه النبوى فى (مؤتة) وهو مالا يمكن القبول به .

وإذا كان قد توقع النصر فما جدوى إحراق السفن ؟

وهذه الخسارة المالية التى لا جدوى كبيرة وراءها فى عصر يصعب فيه صناعة السفن ، والتى يمكن أن توجد طرق بديلة عنها ، هل هى جائزة شرعا ؟

إن كل هذه الجوانب ، سواء تلك التى تتصل بالتضحية بالبشر (اثنى عشر ألف جندى وسبعمائة تقريباً)[1] ، أم بالسفن ـ تجعل من إقدام طارق على هذا الإحراق عملا مخلا بالشريعة ، وهو مالا يمكن للتابعين ـ بشكل يشبه التواطؤ ـ أن يسكتوا عليه ، أو على الأقل أن لا يظهر أى خلاف فقهى حوله . . . لكن هذا السكوت يعنى أنه لم تكن هناك قضية من هذا القبيل ، ولم يثر بالتالى أى خلاف ، لأنه لا يمكن إثارة أى خلاف حول قضية لم تحدث فعلا ، وهو ما نميل إليه ، بالنسبة لتابعى صالح مثل طارق بن زياد ، وبالنسبة لمن معه من التابعين رضى الله عنهم .

إن روح التاريخ الإسلامى التى تستضىء بالشريعة ـ ولا سيما فى هذه العصور ـ لا تميل إلى هذا اللون من السلوك ، فالنظرة الإسلامية للحروب تميل إلى الحفز المعنوى والأخلاقى الروحى ـ لا إلى هذا القهر الانتحارى ـ كما تميل إلى الرغبة فى النصر لرفع كلمة الإسلام أو الشهادة لنيل الجنة ورضا الله .

وقد هزم المسلمون فى غزوات وسرايا كثيرة حتى أيام الرسول ﷺ

---

(١) أخبار مجموعة : لمجهول : ص ١٧ ، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ ، ٣٩٩ .

من أبرزها غزوة أحد ، كما زلزلـوا زلزالا شديداً فى غزوة الخندق . ومع ذلك فلم يرد أى تـفـكير حول هذا السلـوك الانتحارى ، وقد كان المسلـمون يعتبرون الـهزيمة تمحيصا وابـتلاء أراده الله ليخـتبرهم وليتخـذ منهم شهداء ، وقد دخلـوا معارك مصيرية كثـيرة أمام الروم والفرس ولم يفكروا فى مثل هذا الأسلوب ، فهل ينتهى بهم المطاف إلى هذا العمل الانتحارى فى معركة فرعـية وغير مصيرية مثل فـتح الأندلس ؟!!

إن هذا ما نستبعده ، بل نراه غير ممكن الوقوع ، لمخالفته ـ على الأقل ـ للأصول الشرعية ولروح النظرة الإسلامية للحروب .

رأينا فى القضية

إن رأى الباحث فى الدراسات التاريخية ، ولا سيما فى القضايا التى لم يعاصرها إنما يتكئ بـالدرجة الأولى على المصادر المعاصرة أو القريبة من الواقعة ـ وهذا ما يعرف فى علم الحديث (بنقد السند) ـ ثم إنه يتـكئ بالدرجة الثانـية على النقد الـداخلى للواقعة مـن ناحية منطقيتها ومعقوليتها وملاءمتـها لروح عصرها وللقوانين والتقاليد التى كانت مسيطرة إبان وقوعها ، وهذا ـ إذا مـا استعرنا مصطلحات علم الحديث مرة أخرى ـ هو ما يعرف (بنقد المتن) .

ونحن فى الدراسات الـتاريخية نأخذ بجانبى الـنقد معا ، ونرى أن نقد المتن لا يـقل فى أهميته عن نـقد السند ، وأنهما فـى مستوى واحد من الأهمية .

أولا : نقد السند :

وواضح من العرض الســابق لقضية إحراق السفن أنــها لا تصمد فى باب نقـد السند ، فسندهــا منقطع انقـطاعا كبيرا لا يســتطيع أن يتجاهــله أى منهج لنـقد السند ، وقد بـلغ الانقطاع حداً لا يـقبله المنهج التاريخــى مهما كان تجاوزه وتسامحه بالنســبة لمنهج المحدثين . فهنــاك ـ أولا ـ فترة انقطــاع عامة فى مصــادر الدراسات التاريــخية الأندلسية والمغربية ، فإذا كان فتح الأندلس قد بدأ سنة٩٢ هـ وانتهى سنة٩٥هـ وعاد طـارق بن زياد وموسى بن نصيــر إلى المشرق خلال

الشهور الأخيرة من سنة ٩٥ هـ ـ على ما نرجح ـ فإن المصادر التاريخية الأندلسية المدونة لم تظهر إلا فى القرن الثالث الهجرى على يد ابن عبد الحكم المصرى وابن حبيب (ت ٤٣٨ هـ) وهو انقطاع فى الزمان يدعمه انقطاع فى المكان . إذ أن هذين المؤرخين لم يكن انتماؤهما للأندلس ، على الرغم من أن ابن حبيب أندلسى الأصل، لكنهما مثلا المدرسة المصرية الرائدة فى تدوين التاريخ الأندلسى .

ومع هذا ، فإن قصة إحراق طارق للسفن لم تظهر فى هذين المصدرين ولا فى مصادر القرون التالية ، حتى منتصف القرن السادس الهجرى . أى أن هناك انقطاعين ، انقطاعاً يكفى لدحض القصة ـ منذ البداية ـ إذا أخذنا بمنهج المحدثين ، وهو الانقطاع الأول الذى وقع فيما بين فتح الأندلس (٩٣ هـ) وظهور مدرسة ابن عبد الحكم وابن حبيب فى القرن الثالث الهجرى ، وهو انقطاع عام فى الدراسات التاريخية الأندلسية . أما إذا تجاوزنا منهج المحدثين العظيم الذى لم تستطع الدراسات التاريخية ـ حتى اليوم ـ الوصول إليه ، وإن كان من الضرورى الاقتراب منه قدر الاستطاعة ، نقول :

إذا تجاوزنا ـ مضطرين ـ هذا المنهج الحديثى ، ونظرنا إلى الواقعة من زاوية الانقطاع الثانى ،وهو الانقطاع الذى وقع بين ظهور المدرسة الأندلسية التاريخية سواء على يد المدرسة المصرية (ابن عبد الحكم وابن حبيب) أم على يد بواكير المدرسة الأندلسية الأصلية فى القرن الرابع الهجرى (ابن القوطية وابن عريب والخشنى وابن الفرضى وغيرهم) فسوف نجد أن لدينا انقطاعاً يصل إلى أكثر من أربعة قرون ونصف القرن (٩٢ ـ فتح طارق ـ إلى ٥٤٨ هـ مع ظهور كتاب

الإدريسى ثم كـتاب ابن الكردبوس) . فـهل يمكن أن تقبـل واقعة انقطع سندها ، وانقطعت كل مصادرها هذا العدد من القرون ؟!

وجدير بالذكر أنه من سوء حظ الدراسات الأندلسية أن كثيرا من المصادر المتعلقة بفترة الفتح - بـخاصة - وبتاريخ المسلمين فى الأندلس - بعامة - مفـقودة نتيجة الإتلاف المتـعمد الذى قام به رجال الكـنسية المتعصـبون فى فترات متـعددة من التاريخ بـعد سقوط غرناطة سنة ٨٩هـ (١٤٩٢ م) . ففـى سنة ٩٥٠ هـ (١٤٩٩ م) - على سـبيل المثال لا الحصر - أتلفت أعداد كبيرة من المخطوطات بصورة متعمدة، وذلك تنفـيذا للقرار المتـعسف الذى اتخـذه الـكاردينال جيمـينيث - (Ximenez) والذى تسبب فى حرق ثمانين ألفاً من الكتب العربية فى الساحات العامة لغرناطة [١] . أما بقية المخطوطات التى نجت من هذا التلـف المتعمد ، فقد ظلـت فى حوزة رهبان غير مـثقفين ، أو على رفوف بعض المكتبات حتى جمعـت من قبل الملك فيليب الثانى (١٥٥٦ - ١٥٩٨ م وحفظت فى دير الأسكوريال [٢] ، ومع هذا فقد احتـرقت ثـلاثة أرباع هـذه المجموعـة سنـة ١٠٨٢ هـ - ١٦٧١ م)

---

(1) Pascual De Gayanzos The History Of The Mohammedan Dynasties in Spain ,New York 1964, Vol . IPP. VIII - Ix

نقـلا عن الدكـتور عبـد الواحد ذنون طـه ص ١٧ ، ٣٧ فى كتـابه : (الفـتح والاستقرار العربى الإسلامى فى شمال إفريقية والأندلس طبع ١٩٨٢ العراق .

(٢) قارن :

S.M. Lmamuddin, (Sources Of Muslim History Of Spain) : Journal Of The Pakistan Historical Society, I, 1953,P.358

لاندلاع حريق فى الأسكوريال (١) .

وهذه مجرد أمثلة لضياع تراثنا الأندلسى ، تعكس مدى الانقطاع الذى يفصلنا عن كثير من حقائق هذا التاريخ .

ويزيد فى صعوبة الأمر أن أيا من المؤرخين الثلاثة الأول الذين رووا هذه القصة وهم الإدريسى وابن الكردبوس والحميرى ـ الذى نقل عن الإدريسى ـ لم يذكر لنا واحد منهم أية مصادر سابقة نقل عنها ، حتى يقرب لنا مساحة الانقطاع ، أو يدلنا على بعض الضوء فى هذه الظلمات .

كما أن الحميرى ـ كما أثبتنا ـ مجرد ناقل حرفى عن الإدريسى ، فلا يعتد به .

وهكذا ننتهى إلى أننا لا نملك ـ من ناحية السند ـ إلا أن نشك ـ على الأقل ـ فى ثبوت إحراق طارق للسفن .

فإذا أضفنا إلى هذا تطبيق بعض معايير المحدثين فى النظر إلى الرجال الناقلين ، إذ أن ابن الكردبوس كان مجرحاً ـ كما ذكرنا ـ (٢) وأنه لم يكن ثقة فى كثير مما يكتبه ، ولربما كان يعتمد على الأقوال الشائعة التى تشبه الحكايات والأساطير فى عهده .

---

(1) Pascual De Gayanzos, Op.Cik.Vol.Ip.IX

نقلا عن الدكتور عبد الواحد ذنون طه ص ١٧ ، ٣٧ .

(٢) نقلا عن محقق القطعة الأندلسية من كتاب (الدكتور أحمد مختار العبادى) مرجع سابق .

أما الإدريسى فـإن طبيعته الجغرافـية التى من شأنها أن تـقبل ما يحكى فى الرحلات من بعض المبالغات تجعلنا لا نفرق كثيرا بينه وبين ابن الكردبوس ، وعلى خطا الإدريسى سار الحميرى دون تمحيص !!

إذا أضفنا هذا ـ أى نـقد الرجال الناقلين ـ فإننـا نميل إلى رفض هذه القـصة من ناحـية انقطاع الـسند وتجريـح الناقلـين . وهذا هو الأساس المكين الأول فى رفض هذه القصة !!

ثانيا : النقد التاريخى لمضمون قصة إحراق السفن :

إن التتبع الدقيق لخطوات موسى بن نصير وطارق بن زياد فى فتح الأندلس يجعلنا نتشكك فى دعوى إحراق طارق للسفن ، اللهم إلا إذا افترضنا افتراضا خيالياً محضا بأن طارق بن زياد كان يثق فى أن نتيجة المعركة ستكون لصالح المسلمين ، وهو ما لا يمكن التيقن منه (عقلا) فى مواجهة جيش القوط الكبير الذى تحدده أقل الروايات بثلاثة أضعاف المسلمين فى العدد ، وأكثر من ذلك كثيرا فى الإمكانات والعدد . وتصل به بعض الروايات إلى تسعة أضعاف الجيش الإسلامى [1] .

لقد ظهر حرص موسى بن نصير وطارق بن زياد على أرواح المسلمين فى فتح الأندلس منذ بداية التفكير فى الفتح ، ولقد كانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك واضحة فى هذا الصدد ، فقد أمر واليه موسى بن نصير بأن يتريث فى الفتح ، وأن يختبر الأندلس بالسرايا ولا يغامر بأرواح المسلمين [2] .

ولقد استجاب موسى لتعليمات الخليفة ، فأرسل سريتين استطلاعيتين إحداهما بقيادة جوليان حاكم سبتة ، وثانيتهما بقيادة طريف بن مالك [3] ولما اطمأن موسى إلى إمكانية الفتح كلف طارقا

---

(١) أخبار مجموعة : لمؤلف مجهول : ص١٧ وابن الكردبوس . مصدر سابق : ص٤٧ والعبر : لابن خلدون :٤/ ١١٧ . .

(٢) أخبار مجموعة : ص ١٦ وابن الكردبوس : مرجع سابق ٤٥ .

(٣) أخبار مجموعة، بتحقيق الإبيارى ص١٦ ،١٧ وابن الكردبوس :مرجع سابق ٤٥, ٤٦ . وانظر مجهول : وصف الأندلس وتاريخها بتحقيق حسين مؤنس (مجلد ١٨ / ١٩٧٤ مدريد مجلة معهد الدراسات الإسلامية ص ١٢٧) .

بالاستعداد لقيادة الحملة ، ثقة منه فى شخصية طارق ، وفى حسن بلائه وخبرته ومكانته فى البربر المسلمين (١) .

وعندما عبر طارق العدوة الأندلسية ، ودخل الجزيرة الخضراء ، وقبل أن يتقدم إلى الموقعة الفاصلة ـ موقعة شذونة ـ التى سيلتقى فيها بلذريق إمبراطور القوط بنا فى جبل الفتح حصنا منيعا ليتحصن به هو ومن معه ، ثم بنا حصن أم حكيم فى الجزيرة المسماة باسمها حتى اليوم ، ولم يكتف بهذا بل إنه بنا سوراً يسمى سور العرب يضمن به طريق العودة عند الضرورة (٢) . . وفى الوقت نفسه فقد أرسل طارق كتيبة قوية بقيادة عبد الملك بن عامر المعافرى لافتتاح حصن قرطاجنة الذى يقع فى سفح جبل طارق (٣) شمال غرب جبل طارق، وبعد افتتاح هذا الحصن وقعت كل المناطق المحيطة بمنطقة المضيق بيد المسلمين ، وتولى عبد الملك المعافرى مسئولية السيطرة على الجزيرة الخضراء يساعده فى ذلك جوليان ، وبهذا حميت مؤخرة جيش طارق

(١) وصف الأندلس ١٢٨ لمؤلف مجهول : تحقيق مؤنس (كان طارق مسئولا عن عدد كبير من المسلمين البرابرة مثل مصمودة وجرادة وجراءة وكتامة وزناتة وهوارة ، وقد كان مغيث الرومى يصف طارقا للخليفة سليمان بن عبد الملك بأنه لو أمر المسلمين بالصلاة إلى أى قبلة شاءها لتبعوه وهذه كلها دلالات على مكانة طارق (انظر ابن الشباط ١٠٣ ـ ضمن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس تحقيق العبادى مصدر سابق ، وانظر فتح الطيب : للمقرى ٣/ ١٣ بتحقيق مان عباس بيروت ١٩٦٨) .

(٢) البيان المغرب : لابن عذارى المراكشى : تحقيق بروفنسال ٢/ ٩ طبع دار الثقافة بيروت، وانظر تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادى فى ٦٨ .

(٣) انظر ابن عذارى المصدر السابق ٢/ ٩ ونفح الطيب : ١/ ٢٣٣ و الفتح الإسلامى للأندلس : محمد عبد الحميد عيسى ص١١١ طبع القاهرة ١٩٨٥ .

وأصبحت خطوط اتصالاته مع شمال إفريقية آمنة [1] ، وأقام المسلمون حزام أمان يربطهم بالشاطئ الإفريقى ، ويضمن لهم عدم المهاجمة ، ويؤمن لهم طريق الإمدادات والارتداد إذا ما قدر الله لهم مكروها [2] .

وهذه الإجراءات كلها تقتضى اقتضاء مباشراً أن يكون طارق قد وضع فى خطته حساباً للهزيمة والانسحاب ، ووضع الضمانات الكفيلة بحماية جيشه المنسحب ، وهو ما يتناقض مع القول بإحراقه للسفن ، لأن قصة إحراق السفن تقوم على أساس معادلة محددة (النصر أو الموت) ولا مكان فيها للانسحاب .

وعندما اقترب طارق من معركته مع القوط وعلم بعدد الجيش القوطى الكبير أرسل إلى موسى يطلب منه المدد ، أو كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » : (يستفذه ويخبره بأن ملك الأندلس قد زحف إليه بما لا طاقة له به) [3] . وسلوك طارق على هذا النحو يؤكد الاتجاه العاقل والحكيم والحريص على أرواح المسلمين ، فهو لا يلجأ إلى مغامرات غير مأمونة ولا يميل إلى أسلوب المجازفة بأرواح المسلمين . وحتى عندما يهزم طارق جيش القوط ، ويتقدم فيفتح كورة شذونة ، ثم يتقدم فيلاحق المنهزمين ، ويفتح قلعة استجة ، ومورور فى محافظة أشبيلية ، ويتمكن من احتلال طليطلة عاصمة

---

(١)الفتح الإسلامى والاستقرار العربى الإسلامى: عبد الوهاب ذنون طه: ص١٦٤ , ١٦٥ .

(٢) الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١١ .

(٣) انظر : مؤلف مجهول : أخبار مجموعة : ص ١٧ وتاريخ المغرب والأندلس : ص٦٩ .

القوط وبعض القلاع والوديان حولها [1] ، هنا يتوقف طارق عند هذا الحد ، ويستقر فى طليطلة ويرسل إلى موسى بن نصير يدعوه لمساعدته ، ويرسم له خطة القدوم ليكمل فتح المناطق التى لم يتمكن طارق ولا مساعدوه من فتحها .

وفعلا يتقدم موسى سنة (٩٣هـ) بجيش قوامه ثمانية عشرألف جندى أكثرهم من العرب ، فيفتح أشبيلية وقرمونة وماردة وغيرها من مدن الغرب الأسبانى حتى يلتقى بطارق على نهر التاجة . فمثل هذه الحيطة من طارق ، وهو يحتل عاصمة البلاد تدل على أنه قائد حكيم يقدر لخطواته وقعها ولطاقته حجمها ، ولا يميل إلى المغامرات الانتحارية أو غير المحسوبة .

وهكذا ـ من خلال هذا العرض لوقائع جهود طارق فى فتح الأندلس ـ لا نجد ما يدلنا على وجود طبيعة اندفاعية عند طارق ، بل نجد كل الوقائع تؤكد اعتماده على التخطيط وتجنب المخاطرة بالأرواح والمغامرات غير المحسوبة .

وأما ما تذكره بعض المصادر من أنه قد اندفع إلى طليطلة بعد أن أرسل فرقا من جيشه إلى مالقة ومرسية وقرطبة [2] ، وهو ما يفهم منه أنه اندفع نحو طليطلة بعدد قليل ، وأن ذلك كان مغامرة منه ، فالصحيح أن طارقا لم يرسل إلا حملة مغيث الرومى إلى قرطبة ،

---

(١)انظر الكامل : لابن الأثير : ٤/ ٥٦٤ ، ونفح الطيب ١/ ٢٦١ و الفتح والاستقرار العربى الإسلامى : ص ١٧٠ .

(٢) انظر أخبار مجموعة : ص١٩ ، ٢٠ والكامل : ٤/ ٥٦٣ ، والبيان المغرب : ٢/ ٩ ونفح الطيب : ١/ ٢٦٠ .

بل هناك من يرى أنه هو الـذى فتح قرطبة أيضا [١] ، وبديهى أنه هو الذى فتح بجيشه الموحد بقية المدن التى كانت فى طريقه إلى طليطلة .

وأما مالقة ومرسـية فثابت أن موسى بن نصير هو الـذى فتحهما فى حملته التى أكمل بها فتوحات طارق [٢] ، كما أنه من الضرورى القول بأن تقدم طارق نـحو طليطلة كان عملا عسكـريا ضرورياً حتى يمنع القوط مـن التقاط أنفاسهم وتوحيـد صفوفهم [٣] ، وهو الأمـر الذى قدره له موسى بن نصير بعد أن التقى به فى طليطلة ، وقد سارا معا بعـد ذلك لفتح بقية مـدن الأندلس بعد أن كان موسى قـد اقتنع بوجهة نظر طارق فـى التخطيط للفتح ، وبضرورء اسـتقرار المسلمين الدائم فـى الأراضى المفتوحة ، وهـذا الأمر واضح جدا من التـفاهم المتبادل ، والتعـاون المشترك الذى سار بين القائدين خلال فـتوحاتهما المشتركة [٤] فى الوسط والشمال الأسبانى .

لكن هـناك أمرا آخر أمـكن رصده فى أسـلوب طارق فى فـتح الأندلس ، وهو أمر يفتح لنا الباب للـتعرف على شتى جوانب المنهج الحربى لهذا القائد ، كما يدلنا ـ عنـد التحليل العميق ـ على رافد من الروافد الاحتمالية التى انطلقت منها قصة إحراق طارق للسفن .

لقد تحدث عدد من مؤرخى الفتـح الإسلامى لأسبانيا ـ من أمثال ابن الكردبوس والمقرى ـ عن بعض الأسالـيب التى كان يتبعها طارق

---

(١) مجمـوعة تاريخ الأندلـس : لابن الشباط : ص١٤١ ، تحـقيق العبـادى ، مدريد ، والبيان المغرب ٢/ ١١ .

(٢) البيان المغرب : ٢/ ١١ . (٣) د/ عبد الواحد طه : مرجع سابق: ص ١٧١ .

(٤) عبد الواحد ذنون : مرجع سابق : ص ١٧١ .

فى تحطيم الروح المعنوية عند خصومه القوط ، وقد ذكروا منها أنه عمد إلى بعض الأسرى ، فأمر بذبحهم وطبخهم ومن ثم قام بأكل لحومهم المطبوخة هو ومن معه فى الجيش .

يقول ابن الكردبوس ـ أحد الثلاثة الذين عزيت إليهم قصة إحراق السفن ـ : (ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقا ، فلما تدانيا تخير لذريق رجلا شجاعا عارفا بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيآتهم ، فمضى حتى دخل فى محلة المسلمين ، فأحس طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها ، فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها فى تلك القدور . وأصبح الناس فنودى فيهم للاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم ، فلما فرغوا انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم ، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح . فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا) [1].

وبَدَهِيّ أن هذه القصة لم تقع ، وإنما هى حيلة من طارق بن

---

(1) تاريخ الأندلس من الاكتفاء : ص ٤٧ ، ٤٨ بتحقيق أحمد مختار العبادى ـ نشر مدريد ، وانظر مؤلف مجهول (وصف الأندلس وتاريخه) بتحقيق حسين مؤنس ص ١٢٨ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد عدد ١٩٧٤ / ١٩٧٥ (المجلد ١٨) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية : ص ٣٥ ، ونص ابن القوطية موجود فى الصفحات السابقة عند الحديث عن فتح طارق للأندلس فى المصادر الأندلسية .

زياد فى تحطيم الروح المعنوية للخصم ، إذ أنه أراد أن ينقل هذه الصورة عن طريق الجواسيس الذين كان يعلم بوجودهم ، وبأنهم سينقلون ما يرونه إلى القوط وإمبراطورهم وقائدهم لذريق [1] .

ونحن نرى فى هذه القصة جرأة طارق بن زياد فى اللجوء إلى (خدعة) تقوم على أساس غير شرعى ، فالشريعة الإسلامية لا تقبل - بداهة - ذبح الأسرى ، ولا حتى طبخ الموتى إذا كانوا قد ماتوا ، ولا أكلهم فى حال مثل حال طارق وجيشه ، لكنها الحرب التى تقوم على الخدعة ، والتى يباح فيها مثل هذا اللون من الخداع وغيره . لكن لا يباح فيها - بالطبع - ارتكاب مثل هذه الأعمال على الحقيقة . وهنا نتساءل :

ألا يمكن أن تكون قصة إحراق طارق للسفن حيلة مشابهة لهذه الحيلة ؟

إن ثمة عناصر مشتركة بين الحيلتين ، فكلاهما غير جائزة - على الحقيقة - شرعاً وكلاهما كان من الممكن - لو صحت حقيقة - أن تلقى احتجاجا من جمهور المسلمين أو من بعضهم على الأقل ، وكلاهما يهدف إلى تثبيت المسلمين وترويع القوط والإيحاء إليهم بأنهم أمام جيش غير عادى ، يؤثر الموت على الحياة ، ويركب فى سبيل النصر أصعب المراكب .

إن هذا ما نراه ينسجم مع أسلوب طارق الحربى ، ولهذا فنحن نميل إلى أن يكون طارق قد أمر بإبعاد السفن عن الشواطئ فى اتجاه

---

(١) انظر الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١٧ وما بعدها .

الساحل المغربى ، وعندما ابتعد الجيش - بدوره - عن الشواطئ متجها إلى شذونة لضرورات الفتح أمر طارق بإشعال النار فى بعض الأخشاب أو الأشجار ، ثم أوهم المسلمين والقوط على السواء بأن الأسطول قد أحرق ،وأنه لا سبيل أمام المسلمين إلا القتال أو الموت، وأنه يجب على القوط أن يواجهوا جيشا قد باع كل شيء ، وليس أمامه إلا طريق الاستماتة فى سبيل النصر .

ويؤكد رأينا هذا ذلك الاحتمال الآخر القائم على أن كلمة (حرق) إنما كانت فى الأصل بالخاء (خرق) وأن تصحيفاً وقع فيها عند النطق ، كما يؤكد رأينا كذلك تلك البديهية العقلية التى تفيدنا أن أى هدف يمكن تحقيقه دون خسائر أولى من تحقيقه بخسائر ، فضلا عن الخسائر الفادحة ، وبالتالى فمادام فى طوق طارق تحقيق هدفه دون خسائر فما الذى يدعوه للقيام بمثل هذا العمل الذى قد يؤدى إلى خسائر فادحة فى الأرواح والأموال ؟

ويرى الدكتور محمد عيسى أن بعض قادة طارق ، وهم الذين قاموا بإيهام جواسيس لذريق بأكل المسلمين للحوم الآدميين ، هم الذين يمكن أن يقوموا بمثل هذا الإيهام ، فيطلقوا إحراق المراكب ، وهى مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحدثوا بها لإيقاع الرعب فى قلوب عدوهم [1] . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد عاد جواسيس لذريق ليقولوا له : أتتك أمة تأكل لحوم الموتى ، قد أحرقوا مراكبهم ووطنوا أنفسهم على الموت أو الفتح .

فكأن الدكتور عيسى يرى أنها حيلة اشترك فيها قادة جيش

---

(١) الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١٧ .

طارق، كى يحققوا هدفين فى آن واحد : أولهما خاص بالقوط ، وثانيهما خاص بجنود الجيش الإسلامى .

وأيا كان الأمر ، فالقصة ـ فى رأينا ومن خلال هذه القرائن والاحتمالات ـ أدخل فى باب الحيل والمكائد الحربية منها فى باب الحقيقة التاريخية .

وثمة جانب آخر من جوانب الفتح ، يتصل اتصالا وثيقا بقصة إحراق طارق للسفن ، غير الجوانب التى تحدثنا عنها ، وهذا الجانب يتصل بتلك القصة التى اختلف المؤرخون حولها وهى قضية ملكية السفن التى عبر عليها الجيش الفاتح .

فالدكتور حسين مؤنس ـ كمثال ـ ينفى قصة إحراق السفن ـ كما ذكرنا ـ على أساس أن هذه السفن كانت ملكا لجوليان ، وأنه ـ بالتالى ـ لا يجوز للمسلمين أن يحرقوا سفن غيرهم [(١)] . ويكاد الأسلوب التقريرى للدكتور مؤنس يوحى بأن عبور المسلمين على سفن جوليان ـ وليس على سفن إسلامية ـ قضية مسلمة وبديهية .

وقد يزكى رأى أستاذنا الدكتور مؤنس ما يذكره الرقيق القيروانى ـ من مؤرخى القرن الخامس ـ أن جوليان (جعل يحمل البربر فى مراكب التجار التى تختلف إلى الأندلس ولا يشعر بهم أهل الأندلس، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم فجعل ينقلهم فوجا فوجا إلى ساحل

---

(١) فجر الأندلس : ص ٦٩ .

الأندلس وقد تقدم « أليان » إلى أصحاب المراكب أن لا يعلموا بهم)[1] .

فكان الأمر - كما يوضحه نص الرقيق القيروانى - أمر خطة عسكرية أو (حيلة) من حيل طارق ، وليست عوزا أو حاجة من المسلمين لسفن جوليان أو لتجار البحار وقراصنتها ، وهو الأمر الذى جعل الدكتور أحمد مختار العبادى ينبرى للدفاع عنه ، لتأكيد أن المسلمين كانت لهم سفنهم وهو الشىء البديهى الذى لا يقبل النقاش؛ لأن المسلمين كانوا قد أصبحوا من المتنافسين على السيطرة على البحار، وقد مر عليهم نحو ستين سنة على انتصارهم الرائع فى موقعة ذات الصوارى (٣٥هـ) . ولا يمكن - عقلا - أن يكونوا حتى تاريخ فتح الأندلس (٩٢ هـ) لا يملكون ما يكفى لعبور جيش مثل جيش طارق ، كما أننا نجدهم قد تمكنوا من العبور بعد سنة واحدة بجيش جديد قوامه ثمانية عشر ألف جندى بقيادة موسى بن نصير.

ونحن لا نرى القضية مشكلة على النحو الذى عالجها به بعض المؤرخين ، كما أننا نرى أنه لا تناقض بين الروايتين ، فقد يمكن أن تكون الحيلة الحربية قد أوجبت عبور الجيش على النحو الذى أورده الرقيق القيروانى ، مع رصد ومراقبة من السفن الإسلامية المرابطة على الشاطئ المغربى والحارسة تشق طريقها - بوضوح - نحو الشاطئ. قامت هذه السفن الراصدة بحمل المؤن وبحمل عدد آخر من الجنود ، وبمجرد نزول الجيش الإسلامى - أو معظمه - على

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب : ص ٧٤ . بتحقيق المنجى الكعبى .

الشواطئ الأسبانية بدأت السفن الإسلامية المتربصة والحارسة تشق طريقها ـ بوضوح ـ نحو الشاطئ الأندلسى ـ بعد أن نجحت الحيلة ، وعبر جيش طارق بأقل معارك ممكنة ، إذ لم تحدث إلا موقعة جبل طارق التى خاضها المسلمون فى مواجهة الحامية التى تحمل الثغور والشواطئ الأسبانية قبالة المغرب .

بل إن وجود حامية أسبانية على الشواطئ الأسبانية ـ وهو أمر نراه ضروريا وثابتا ـ يجعل من خداع طارق وتجنبه الإفصاح عن غايته فى الفتح أمرا تقتضيه الظروف العسكرية ، فلو كانت الشواطئ بلا حماية لما أبه طارق بالأمر .

لقد كان جبل طارق يمثل على امتداد التاريخ موقعاً استراتيجيا وهمزة وصل بين عدوتى المغرب والأندلس ، وكان التحكم فى مضيق المجاز ضرورياً ضد أى عدوان على أسبانيا من الناحية الجنوبية .

ولقد أدرك الفينيقيون منذ القدم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتى المغرب والأندلس فأقاموا على هذا الجبل أبراجا للمراقبين [١] . ولا شك أن القوط فى أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين فى الجانب المغربى المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة ، لأن مضيق المجاز الذى يفصل بينهما ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه فى أضيق جهاته خمسة عشر كيلو مترا ، وهى مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكرى بين

(١) تاريخ المغرب والأندلس : ص ٦١ نشر اسكندرية ط ١ .

الشاطئين المغربى والأسبانى [1] .

ويضاف إلى هذا أن الـغارات التى شنها كل من يـوليان وطريف على سواحل أسبانـيا الجنوبية ، كانت بمثابة إنذار صـريح للقوط كى يأخذوا حذرهم من أى هجوم يقع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل أن يغفل القـوط بعد ذلك هذه القاعدة العـسكرية مهما بلـغ ضعفهم بدون حراسة أو مراقبة [2] .

وكل هذا يجعل من الطبيـعى أن يأخذ طارق للأمر أهبته ، وأن يلجأ إلى أسلوبه فى الحيل الحربية ، وبالتالى ، ومع امتلاك المسلمين لأسطول كبير [3] ، يموه على أعدائه بالعـبور على سفن غيره دون أن يعنـى ذلك مغامـرة بأرواح المسلمـين على سفن أجـنبية ، فـقد كان الأسطول ـ كما ذكرت ـ يراقب الحركة كلها ـ كما أتوقع ـ عن كثب، وعلى أهبة الاستعداد لأى طارئ جديد .

وهكذا ـ مـن خلال هذا التحـليل لقضيـة (السفن) التـى عبر علـيها الجيـش الإسلامى ـ يـتجلى لـنا أن السفـن التى عـبر عليـها المسلمون كانت لجـوليان أو للتجار ـ كما ذكر أستاذنـا الدكتور مؤنس وغيره وهو ما نميل إليه من خلال تحليلنا السابق ـ لكن ذلك كان لحيلة عسكرية وليس لعـدم ملكية المسلمين لسفن كافيـة ، وبالتالى فلا نجد مجالا لاعتراض الدكـتور العبادى الذى ذهب يثبت فـيه أن المسلمين

(١)المكان السابق .   (٢) المكان السابق .

(٣) لا يعقل أن يعـبر جيش قوامه سبعـة آلاف ـ فى الطلعة الأولى ـ علـى أربع سفن هى التى ورد ملكيـة جوليان لها. انظر : مـؤلف مجهـول : وصف الأندلس وتـاريخه ، مجلد ١٨ عدد ١٩٧٤ ص ١٢٨ ، وانظر العبادى ٥٩ .

كانوا يملكون السفن الكافية .

فالعبور علـى سفن جوليان أو التـجار لم يكن لعدم الملـكية بل لحيلة عـسكرية ، وإحراق طارق لـلسفن التى تم الـعبور عليهـا غير وارد، لأنها ملك لغيره ، كمـا أن إحراقه الأسطول (المراقب) ليس له ما يبرره ، فهو أسطول يحمى الشواطئ ويحمى الجيش الإسلامى من خلفه فلـربما تأتى قوى رومانية أو قوطية مـن الخلف ، ولم تكن مهمة الأسطول فقـط ـ كما ينظر بعضهم إلى القضـية ـ مجرد انتظار المسلمين حتى ينسحبوا ـ إذا انهزموا ـ ليركبوه عائدين .

بل هناك ملحظ آخر ، فإن وجود سفن للقراصنة ولجوليان قادرة علـى حمل الجـيش الإسـلامى أو بعـضه ـ يوجـب وجود أسـطول إسلامى على الشـواطئ ، فلربما حاولت هذه السفـن ـ وهى نصرانية مهما أظهرت مـن ولاء ـ أن تغدر بالمسلمين وتضربـهم من الخلف ، فيقع الجيش بين فكى الكماشة ، وهو ما لا يبرره عقل ، ولا توجبه ظروف ، ولا نعـتقد أن طارقـا كان يورط فيـه جيش المسـلمين دون سبب معقول !!

ونحن نرى ـ من كل ذلك ـ أن إحراق السفن أمر لم يكن جائزاً من الناحية الاستـراتيجية ، وليس له ما يبرره ، بل هـناك ما يمنعه ، سواء كانت السفن لجوليان أو للتجار للقراصنة أو للمسلمين .

وثمة تساؤلات أخرى ـ غير جوانب النقـد السابقة ـ تتصل كلها بالنقد التاريـخى لهذه القصة ـ من ناحية مضمونـها ـ بعد أن وصلنا إلى ترجيح رفضهـا من ناحية سندها التاريخى والمـصادر التى اتكأت عليها .

فبالإضافة إلى ما ذكرناه من دلالات خطوات الفتح وأسلوب طارق وموسى فى الحيطة والحذر والحرص على أرواح المسلمين ، واتخاذ طارق كل وسائل تأمين الانسحاب ، ومهارته فى استعمال الحيل التى نرجح أن (إشاعة إحراق السفن) واحدة منها ، وصعوبة - إن لم يكن استحالة - حرق السفن على أساس أنها - فى بعضها على الأقل - ملك لغير المسلمين ، وأنه لا لزوم لحرقها سواء كانت للمسلمين أو لغيرهم ، فالحيل لا تعوز فى الاستعاضه عن هذا الإحراق .

بالإضافة إلى كل هذا ، فثمة تساؤلات أخرى نراها ضرورية فى باب نقد مضمون هذه القصة .

فهذه القصة ليس فيها ما يدلنا على الوقت الذى وقع فيه الحريق . . . هل وقع بعد عبور طارق مع طالعته الأولى ، وهذا يبدو مستبعدا من أول وهلة - بناء على ما صح من أن طارقا احتاج إلى مدد ، وأمده موسى - فعلا - بخمسة آلاف ، وليس صحيحا ما تذكره بعض الروايات - بصفة إجمالية - بأن طارقا عبر بجيش مكون من اثنى عشر ألف جندى وسبعمائة (عشرة آلاف من البربر وألفين من العرب وسبعمائة من السودان) [(١)] .

ولعل هؤلاء المؤرخين أنفسهم يقصدون أن هذا العدد عبر على

---

(١) وصف الأندلس وتاريخه : لمجهول : ص ١٢٨ وانظر الطبرى ٨ / ٨٢ (تاريخ سنة ٩٢) طبع دار الفكر بيروت ويرى ابن خلدون أن العرب كانوا ثلاثمائة فقط : العبر ١٧٧/٤ .

مرتين ، وليس فى مرة واحدة ، وإنما الأمر مجرد اختصار منهم ، وبالتالى فالاحتمال الأقوى : أن يكون طارق قد فعل ذلك ـ لو فعله ـ بعد عبور الجيش كله . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى بن نصير بعدده الذى بلغ ثمانية عشر ألف جندى ، والذى عبر بعد سنة واحدة ليساعد طارقا على الفتح ويلتقى بطارق وجيشه على نهر التاجة . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى هذا قد استحدث أسطولا خلال هذه السنة ، أو أنه يكون أصلا فى غير حاجة إلى أسطول طارق ، وكلاهما مما نستبعده ، فالمسلمون الذين قالت بعض الروايات إنهم استأجروا ـ أو اقترضوا ـ بعض السفن من جوليان أو التجار لم يكونوا ليضحوا بأسطول يملكونه !!

ولقد ثبت أن المسلمين كانوا جادين فى البحث عن سفن ، وأن موسى كان يحث طارقاً على تملك ما يستطيع تملكه من السفن ـ وليس إهدار ما معه من السفن !!

وكما يقول ابن القوطية فقد (ذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقاً مولاه إلى طنجة وما هنالك ، فافتتح مدائن البربر وقلاعها ، ثم كتب إلى موسى : إننى قد أصبت ست سفائن ، فكتب إليه موسى : أن أتمها سبعاً ثم سيرها إلى شاطئ البحر واستعد لشحنها)[1] . ففيم يكون إذن ـ مع هذا البحث عن السفن ـ إهدارها فى غير ما مصلحة ملحة أو ضرورية ؟!!

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس : ص ١٢٠ .

ومن الغريب أننا ونحن نستعرض تطور الأحداث فى فتح الأندلس وما تلاه واتصل به من أحداث ، لا نجد أى صدى ـ فضلا عن أية إشارة صريحة ـ لحادث حريق السفن هذا ، وبالرغم من أن هناك بعض الأحداث التى كانت توجب وروده بطريقة أو أخرى .

فحسب ما يرويه لنا بعض المؤرخين من أن هناك خلافاً وقع بين طارق وموسى بن نصير ، وأن موسى قد حقد على طارق ، وساءه توغله فى البلاد دون إذن منه . . . وكتب إليه ـ كما يقول ابن خلدون ـ يتوعده ويأمره ألا يتجاوز مكانه [١] . ألم يكن حادث إحراق السفن ـ لو وقع ـ سلاحا فى يد موسى يستغله للانتقاص من جهود طارق ولتسجيل مخالفة عليه على هذا المستوى من الأهمية ؟

ولقد كان إحراق السفن ـ لو وقع ـ أدعى لتأكيد رأى موسى فى أن طارقاً قد غامر بأرواح المسلمين .

وبما أننا لا نؤكد هذا الرأى ، ونرى أن الخطة كانت باتفاق مسبق، وأن طارقا التزم الحكمة واستدعى موسى والتقى معه وسارا معا بعد نهر التاجة ، وأن موسى فتح مدنا لم يفتحها طارق ، فكملا بعضهما ، وأن طارقاً إنما كان ضابطا ومولى لموسى بن نصير ، وكل أمجاده تنسب ـ أيضا ـ إلى موسى [٢] . بما أننا لا نؤيد هذا الرأى فنحن لا نعول على قضية خلاف طارق مع موسى لأننا لم نجد لها سنداً تاريخياً ولا منطقيا .

---

(١) العبر : ٤/١١٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) انظر العبادى : مرجع سابق : ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .

لكننا إذا كنا قد تجاوزنا هذه المسألة ، فنحن لا نتجاوز المسألة الثانية التى تتصل بالخلاف الثابت والمعقد بين الخليفة سليمان بن عبد الملك والقائد موسى بن نصير عندما رفض الأخير التباطؤ بهداياه حتى تؤول إلى موسى حين يكون أخوه الوليد قد لقى ربه ، والقصة مشهورة تشبه أن تكون متواترة (١) .

فلماذا لم يواجه سليمان خصمه موسى بقصة إحراق السفن ؟ تلك القصة التى لم يقم موسى بتوجيه أى لوم أو عقاب لضابطه طارق عليها، فكأنه رضى عنها أو كأنها كانت من تخطيطه فى الفتح.

على أننا فيما وصل إلينا من وثائق الدولة الأموية وفتوحاتها وخلفائها ورسائلهم ومكاتباتهم وسائر ما يتصل بهم ، لم نجد أى صدى لهذه القصة فى هذه الوثائق ، فكيف يمكن أن يقع هذا الصمت المريب إزاء قصة قدر لها أن تنال هذه الشهرة ؟

الحقيقة أنه ليس ثمة إلا تفسير واحد ـ فى رأينا الذى انتهينا إليه والذى نؤمن به ـ وهو أن هذه القصة لم يكن لها وجود أصلا ، حتى يكون لها صدى . وهل يمكن أن تكون عيون التاريخ عمياء ـ خلال هذه الأحقاب المتطاولة ـ فلا ترى أى بصيص ، ولا تلمس أية بصمة، ولا تسجل أى أثر يضع أيدينا ـ بيقين ـ على دليل واحد من أدلة الإثبات ، أو نقطة ضوء واحدة موثقة ؟!!

---

(١) انظر : أخبار مجموعة : ص ٣٥ ، ٣٦ ، والبيان المغرب ٣/ ٢٠ ، ٢١ وانظر العبادى: مرجع سابق ٧٩ .

كلا ، إن عيون التـاريخ أقوى من ذلك بكثير ، وكـل ما هنالك أن التاريخ الصحيح لا يرصد الأساطـير ، ولا يأبه بالشائعات والحيل التى لا تقوى على الوقوف ـ كوقائع ـ على قدميها .

وإن التاريخ لقادر على رفضها مهما كان رصيدها من الشيوع فى عالم الحكايات الأدبـية أو الأساطير الشعبية . وهذا هـو الجدير بتلك الأسطورة الغريبة ، الـغريبة على تاريخ المسلمين ، وعـلى شريعتهم وروح حضارتهم ، وسيرة صحابتهم وتـابعيهم ، والمصادر الصحيحة لتاريخهم والمناقضة لمنطق الوقائع والأشياء .

وهذه هى كـلمتنا الأخـيرة ، ورأينا الذى انتـهينا إليـه فى هذه القضية ، قضية إحراق طارق بن زياد للسفن .

مراجع البحث

١ ـ **أخبار الزمان** : للمسعودى ـ نشر مكتبة الأندلس ـ بيروت .

٢ ـ **أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها** : لمجهول ـ تحقيق إبراهيم الإبيارى ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠١ هـ .

٣ ـ **الإسلام فى أسبانيا** : للطفى عبد البديع ـ ط ٢ ـ مصر .

٤ ـ **الإسلام والحضارة العربية** : لمحمد كرد على ـ طبعة مصر .

٥ ـ **الإمامة والسياسة** : لابن قتيبة الدينورى .

٦ ـ **البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب** : لابن عذارى المراكشى .

٧ ـ **تاريخ الإسلام السياسى** : لحسن إبراهيم ـ ط ٩ ـ مصر .

٨ ـ **تاريخ افتتاح الأندلس** :لابن القوطية ـ تحقيق إبراهيم الإبيارى ـ نشر دار الكتب الإسلامية ـ بيروت ـ القاهرة .

٩ ـ **تاريخ إفريقيا والمغرب** :للرقيق القيروانى ـ تحقيق المنجى الكعبى ـ نشر رفيق السقطى ـ تونس ـ ١٩٦٨ م .

١٠ ـ **تاريخ الأندلس** : لابن الكردبوس ـ مقدمة العبادى ـ طبع معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ م .

١١ ـ **التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة** : للدكتور عبد الرحمن الحجى :طبع دار القلم بدمشق والكويت ـ الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .

١٢ ـ **تاريخ الرسل والملوك** : للطبرى ـ طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر ـ نشر دار الفكر ـ بيروت .

١٣ ـ **تاريخ علماء الأندلس** : لابن الفرضى .

١٤ ـ **تاريخ غزوات العرب** : للأمير شكيب أرسلان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٥ ـ **تاريخ المغرب والأندلس** : للدكتور أحمد مختار العبادى ـ طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ـ ١٩٦٦ م .

١٦ ـ **جذوة المقتبس** : للحميدى ـ نشر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبنانى ـ ط ٢ ـ ١٩٢٣ م .

١٧ ـ **الحقيقة التاريخية فى فتح الأندلس** : للدكتور محمد عبد الحميد عيسى ـ ط ١ ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٥ م .

١٨ ـ **حول دول الإسلام فى الأندلس** : لمحمد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجى ـ ط ٤ ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م .

١٩ ـ **الدولة العربية فى أسبانيا** : للدكتور إبراهيم بيضون ـ طبعة بيروت .

٢٠ ـ **الروض المعطار** : للحميرى .

٢١ ـ **رواية فتح الأندلس** : لجورجى زيدان ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت .

٢٢ ـ **صلة السمط وسمة المرط** : لمحمد بن على الشباط المصرى التوزى ـ تحقيق أحمد مختار العبادى ـ مدريد ـ ١٩٧١ م .

٢٣ ـ **العبر** : لعبد الرحمن بن خلدون ـ الـطبعة الرابعة المصورة ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٧٩ م .

٢٤ ـ **الفتح الإسلامى للأندلس** : الدكتور محمد عبد الحميد عيسى ـ ط ١ ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٥ م .

٢٥ ـ **فتح المسلمين للأندلس** : لمجهول ـ تحقيق حسين مؤنس ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية ـ سنة ١٩٧٤ م .

٢٦ ـ **الفتح والاستقرار العربى الإسلامى فى شمال إفريقية والأندلس:** للدكتور عبد الواحد زنون طه ـ طبع ١٩٨٢ م ـ العراق .

٢٧ ـ **فتوح مصر والمغرب والأندلس:**لابن عبد الحكم المؤرخ المصرى ـ نشره المستشـرق تشارلز تورى ، وأخيراً حققه فـى مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .

٢٨ ـ **فجر الأندلس** : لحسين مؤنس ـ الطبعة الثانية ـ سنة ١٤٠٥ هـ ـ الدار السعودية للنشر .

٢٩ ـ **قادة فـتح المـغرب** : للأستاذ مـحمود شيت خطـاب ـ طبعة دار الفكر .

٣٠ ـ **قرطبـة فى العصـر الإسلامى** : الدكتور أحمد شـكرى ـ الطبعة العاشرة .

٣١ ـ **قضاة قرطبة** : للخشنى .

٣٢ ـ **الكامل** : لابن الأثير ـ طبع دار صادر ـ بيروت .

٣٣ ـ **كتاب تـذكارى** : لقسم اللـغة الغربية وآدابها بجامـعة الكويت ١٩٧٦/ ١٩٧٧ م .

٣٤ ـ **مبتدأ خلق الدنيا** : المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب ـ ت ٢٣٨ هـ .

٣٥ ـ **المتين** : لأبى مروان بن حيان القرطبى .

٣٦ ـ **محطات أندلسية** : لمحمد حسن قجة ـ ط دار السعودية .

٣٧ ـ **مع المسلمين فى الأندلس** : لعلى حبيبة .

٣٨ ـ **المقتبس** : لأبى مروان بن حيان القرطبى .

٣٩ ـ **موسوعة التاريخ الإسلامى** : للدكتور أحمد شلبى ـ طبع القاهرة .

٤٠ ـ **نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب** : لأحمد المقرى التلمسانى ـ طبع بيروت .

٤١ ـ **وفيات الأعيان** : لابن خلكان ـ نشر محيى الدين عبد الحميد.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ١٩٩٥/٧٧١٥م

I.S.B.N:977-255-122-5

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٣٤٢٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠
ص.ب: ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨